أ.د. عماد الدين خليل



رحلة الصعود

التي لا نهايـة لهـا



رحلة الصعود

التي لا نهاية لها

• الموضوع: أدب - قصص
• العنوان: رحلة الصعود التي لا نهاية لها
• تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م
ISBN 978-614-415-225-6



• الطباعة والتجليد: المطبعة العربية - بيروت
• الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف
• القياس: 15×22 / عدد الصفحات: 128 / الوزن: 170 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

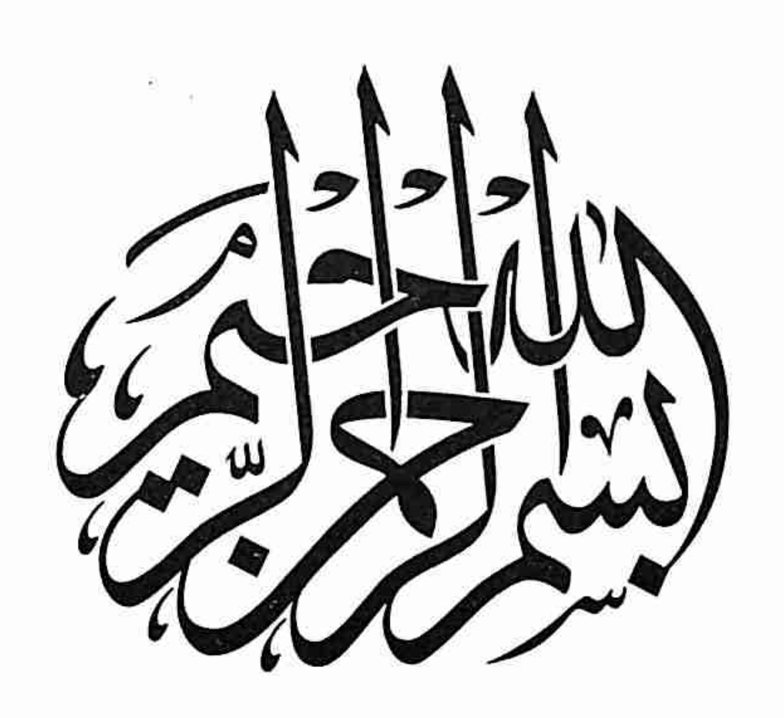
أ.د. عماد الدين خليل

رحلة الصعود

التي لا نهاية لها






بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تردّدت طويلاً في الإقدام على كتابة القصّة القصيرة، رغم أن موضوعاتها تجمّعت لدي، ورغم أن إغراءاتها كانت أشدّ من أن تقاوم..

والسبب يكمن في أن (القصة القصيرة) هي واحدة من أشد الأنواع الأدبية صعوبة وتعقيداً، بسبب من ضيق مساحتها، ومطالبها المتشابكة، بدءاً من العقدة، وتنامي الحدث، مروراً باللغة المناسبة، وضرورات الاقتصاد والتركيز.

لقد انحرف الكثيرون عن هذه المطالب ذات اليمين وذات الشمال؛ بعضهم استغنى عن العقدة، بسبب عجزه عن اكتشافها أو التعامل معها، فانزلقت أعماله باتجاه نمط من المقالة الأدبية، لا يحمل من القصة القصيرة سوى اسمها، وربما مساحتها، فحسب.

بعضهم الآخر ألحّ في الإغماض من أجل تغطية عجزه هذا..

بينما راحت فئة ثالثة تبحث عن العقدة التي لا رصيد لها في عالم الحسّ أو التجربة أو الحياة.

لم أشأ أن أقع في منزلقات كهذه، لهذا آثرت الانسحاب، أو في الأقل التعليق الزمني بانتظار اليومَ الذي أتفرّغ فيه للمحاولة، بعد أن تكون قد نضجت فعلاً على نارٍ هادئة. .

وفي رأيي أن احترام مطالب القصّة القصيرة كما صمّمها المهندسون الكبار في الغرب والشرق، وعلى رأسها العقدة؛ يعدّ ضرورة من الضرورات، ليس فقط لتجاوز النزعة الهدْمية التي تنطوي عليها بعض تيارات الحداثة الإبداعية في سعيها المحموم لتدمير الثوابت الموضوعية والجمالية معاً، حيث يصير التغيير هدفاً بحدّ ذاته، وإنما احتراماً وتقديراً لحاجة القارئ الذهنية والنفسية إلى المتعة، والمشاركة، والتوق إلى الاكتشاف، والتوقّع، والعثور في نهاية الأمر على الجواب. .

وأخشى ما يخشاه المرء وهو يبحر في تيار الحداثة بمستوياتها الثلاثة: **التنظير، والنقد، والإبداع**، أن يجد نفسه قبالة حالات لا يمكن التسليم بها بسهولة: إلغاء مبدأ المتعة الفنية في العمل الإبداعي، وتحويل النشاط النقدي إلى جهد مختبري قد يضع الأسلاك الشائكة بين المبدع والمتلقّي. . أو بين النصّ والقارئ، ويصرف الأخير عن استدعاء الناقد لكي يعينه على التعامل مع النصّ، ليس كمعادلة رياضية، أو كشف كيمياوي، وإنما كجهد إبداعي يستعصي على الجدولة والترقيم.

لا بدّ من إعادة القصة إلى وضعها الطبيعي. . إلى رحمها الذي تخلّقت فيه. . وبالتالي لا بدّ من ردّ ما سلبه منها بعض الحداثيين، وبخاصة مبدأ «المتعة» في زمن الميكانيك الصارم والتكاثر بالأشياء،

حيث تصير المتعة الفنية ضرورة ملحّة للإنسان المعاصر، وإلّا ازداد تعاسة ونكداً وشقاءً..

المجموعة القصصية التي يجدها القارئ بين يديه «واقعية» بالمفهومين النقدي الاصطلاحي، واللغوي.

فعلى المستوى الأوّل، تنتمي المجموعة إلى «الواقعية الإسلامية» بما أنها لا تكتفي بالتعامل مع الخبرات الواقعية فحسب، بل تحاول أن تنظر إليها، وقد توظّفها لحساب الرؤية الإسلامية دون مباشرة أو تكلّف أو افتعال، وإنما بنوع من الالتزام المرن، إذا صحّ التعبير، حيث تومض الرؤية من بعيد ومن خلال خفقانِ الشخوص أنفسهم، ونبض الوقائع والأحداث.

وهي على المستوى الثاني واقعية أيضاً، بمعنى أن كل قصة استمدت في معظم حلقاتها وشخوصها من وقائع تشكلت بالفعل وشهدتها بنفسي أو شاركت في جانب منها، أو سمعت بها من آخرين إلى حدّ التواتر.

وهذا لا يعني بطبيعة الحال تجريد هذه القصص بالكلية من حلقات متخيّلة، ولمسات مضافة هنا أو هناك، بما هو ضروري على المستوى الفنّي الصرف للتحقّق بمطالب هذا النوع الأدبي الصعب.

ومن الله وحده التوفيق

الموصل في شباط ٢٠٠٣م

الطبيب والأم

غادرتُ العيادة في ساعة متأخرة من الليل، كعادتي في معظم الأحيان، بعد معاينة آخر مريض.. كنت تعباً بسبب توقفي طويلاً عند بعض الحالات الصعبة التي تعاملت معها ذلك اليوم.. وزادني جوعي الشديد وتكويني العصبي ضيقاً، فاندفعت بسيارتي في سرعة غير اعتيادية. ولم أكن أعلم أنني بذلك أسير إلى حتفي بظلفي كما يقول المثل المعروف، إذ ما لبثت أن فوجئت بامرأة عجوز تجتاز شارع الفاروق الرئيسي ببطء.. ولم أقدِّر ـ كما هو مطلوب ـ المسافة الزمنية التي تفصلني عنها، وربما كان ظهورها قبالتي فجأة ما جعلني أرتبك قليلاً، ولم تفلح محاولتي في الضغط على الكابح حتى آخره، إذ سمعت على حين غفلة، وسط العتمة التي لا يكاد مصباح الشارع المرتفع يضيئها، صوت ارتطام قاسٍ، أعقبه أنين متقطع خافت كأنه صادر من مكان بعيد.

فتحت باب السيارة بسرعة، وانكببتُ على العجوز لمعرفة حجم إصابتها، معتقداً ـ بسبب عنف الصدمة ـ أنها ميتة لا محالة.. لم تكن لحظات من الزمن تلك التي كانت تفصل بين مغادرتي السيارة وبين الانكباب على العجوز، ولكنها دهر طويل..

ـ لا حول ولا قوّةَ إلّا بالله..

قلت بصوت مسموع، وضربات قلبي تزداد عنفاً.. وترددت لحظات بين العودة إلى السيارة لتناول السماعة من حقيبتي وتفحص

نبضها، وبين حملها مباشرة إلى المستشفى الجمهوري الذي لم يكن يبعد كثيراً عن المكان.. واخترت الثانية كسباً للوقت..

استعنت بأحد المارة ووضعنا العجوز في المقعد الخلفي ثم انطلقت مسرعاً إلى العيادة الخارجية للمستشفى، وبعد إجراء الكشوفات المستعجلة تبين أنها أصيبت بكسور عديدة وبارتجاج في الدماغ، وأن تجاوزها حالة الخطر قد تكون مستحيلة.

أعطيت موظف الاستعلامات رقم هاتفي وأنا أقول له:

ـ سوف يهرع إليها أهلها ـ ولا ريب ـ بمجرد تأخُّرِها طويلاً عن العودة إلى البيت، وحينذاك أرجو أن يتصل بي أحدهم على هذا الرقم.

وبعد أن اطمأننت على وضعها تحت إشراف عدد من الأطباء الخفر قفلت عائداً إلى البيت..

وكما توقعت رنّ جرس الهاتف في الواحدة ليلاً.. كان ابنها على الطرف الآخر، وقال بأنه يريد أن يراني على عجل.. وأردت أن أطمئنه على وضع والدته فأقفل السماعة بعصبية دون أن يردّ عليّ.

انطلقت إلى المستشفى.. كان ثمة رجل قد تجاوز الأربعين من العمر يروح ويجيء بنفاد صبر عند باب العيادة الخارجية، وخمّنت أن يكون الابن الذي حادثته قبل دقائق، وما أن رآني حتى هرع إليّ وملامح الغضب والضيق تكسو وجهه..

ـ ماذا فعلت بأمي يا دكتور؟

أجبته وأنا أحاول أن أكون متمالكاً أعصابي ما وسعني الجهد:

ـ تلك أقدار الله وما شاء الله فعل..

ـ ولكنك قضيت عليها بسبب سرعتك التي لا مبرر لها، وأنت الطبيب الذي يفترض فيه حماية أرواح الناس.. لا إزهاقها..

بدأ الدم يغلي في عروقي ولكنني قررت أن أشكمه.. وقلت:

ـ رفع عن ابن آدم الخطأ والنسيان وما استكره عليه.. لقد كان هذا خطأ مني، وسأتحمل نتائجه إن شاء الله..

قال بتحدٍّ:

ـ هل تستطيع أن تعيدها إلى الحياة؟

أجبته وضربات قلبي تزداد ارتفاعاً:

ـ حاشا لله.. ولكن هل..

قاطعني بنزق:

ـ إنها بحكم الأموات.. والمسألة مسألة وقت فحسب..

قلت وأنا أحاول أن أهدئه قليلاً:

ـ وما الذي تريده مني؟! ها أنت ذا ترى كيف أنني حملت أمك إلى المستشفى، ولم أتركها عرض الطريق، ثم إنني أعطيتهم رقم هاتفي، وطلبت منهم اتصال أحدكم بي لتقديم المعونة الممكنة..

قال وقد اكتسبت ملامح وجهه شيئاً من المكر غطى على ما كان قد ارتسم عليها من الحزن والقلق:

ـ الدِّية يا دكتور.. لقد قتلت نفساً ولابدّ من التعويض..

ـ ولكنها لم تمت.. ومن يدري فلعلها تتجاوز حالة الخطر إن شاء الله.. والأعمار بيد الله.. وبقدر ما يتعلق الأمر بي فسأمكث إلى جوارها هذه الليلة لمعاونة الأطباء الخفر..

أجاب وخطوط المكر تزداد وضوحاً على وجهه:

ـ هذا لا يكفي.. ولا بدّ من تعهد بالتعويض في حالة وقوع المحذور..

وفي محاولة للفكاك من الأسر.. للخروج من دائرة الحيرة والغموض.. لتجاوز حالة الضيق والندم والاختناق التي كانت تحاصرني بضراوة.. وقبل هذا كله، لوقفِ هذا الرجل عن تجاوز حدوده واختراق ما قد يؤثر على سمعتي كطبيب معروف، قلت وأنا أتشبّث بحبل الإنقاذ المتبقي:

ـ في حالة موتها ـ لا قدر الله ـ فإنني أعدك..

قاطعني بلهفة:

ـ وهذا أيضاً لا يكفي..

نظرت إليه بدهشة فأدرك ما أعنيه، وقال بشيء من التلعثم:

ـ لا بدّ من تحديد مبلغ التعويض

للحظات دخلت دائرة الغموض مرة أخرى.. وحاولت أن أقنعه بأن يترك ذلك للجهات المعنية ذات الخبرة في تحديد التعويضات المعتمدة في حالات كهذه، ولكنه أصرّ على أن يتلقى مني وعداً بالمبلغ المطلوب.

انتابني النزق مرة أخرى، ووجدتني للحظات على مفرق طريق بين الاستجابة لطلبه، والتحرر من الأسر، والعودة إلى بيتي، وبين الرفض، وليكن ما يكون.

ولكنّ ما يسميه الناس بصوت التعقل والحكمة دفعني إلى الخيار الأول، إلا أنني أردت أن استفزه لعله يتراجع قليلاً:

ـ وكم تريد ثمناً لأمك؟

أجاب دون أن تثيره كلماتي:

ـ مليون دينار!

قلت وأنا أحاول أن أشكم انفعالي:

ـ مليون؟! دفعة واحدة؟!

ـ بمقدورك أن تسال عن التعويضات التي دفعت في حالات مشابهة.. هذا أقل ما يمكن طلبه.. إنك تعلم ما الذي تعنيه المليون في زمننا هذا؟!

أردت أن أقول شيئاً ما.. ولكنه قاطعني:

ـ إنك طبيب متمرس، ومراجعوك كالنمل، وهذا المبلغ الذي تطالَب به يمكنك جمعه في أسبوعين!

نظرت إلى ساعتي وسط إحساس قاسٍ بالقهر، فوجدتها قد تجاوزت الثالثة.. كنت مستعداً في تلك اللحظة لشراء راحتي وفكاكي بأكثر من مليون دينار، وتملكتني رغبة عاتية في أن أتجاوز الورطة بأي ثمن، فقلت وأنا أشيح عنه بازدراء:

ـ سوف أعطيك المبلغ إذا حدث أن توفيت أمك..

أصرّ على تقديم الضمانات وترتيب إجراءات الدفع.. ثم قال مجاملاً:

ـ إنني أشكرك أيها الدكتور، فما أكثر الذين يدهسون الناس ثم يتركونهم لمصيرهم..

لم أردّ عليه.. واتجهت إلى الردهة التي وضعت فيها العجوز، وأكّدتُ على طبيبَيْ الخفر بضرورة الاعتناء بها، ثم غادرت المستشفى عائداً إلى البيت..

لم أستطع أن أتناول فطوري في اليوم التالي، وهرعت إلى المستشفى محمولاً على جناحي لهفة شديدة لمعرفة مصير المرأة.. ليس حرصاً على مبلغ التعويض، وإنما رغبة في تجاوز حالة الإحساس بالإثم؛ الذي حاصرني فيما تبقى من ساعات الليل، فلم يدعني أنام لحظة واحدة.. وقلت في نفسي وأنا أوشك على الوصول إلى المستشفى: إن حساسية المؤمن تجاه القتل، حتى لو كان خطأ غير متعمد؛ تفوق التصور.. إنها خارج حدود الاحتمال.. فماذا لو توفيت العجوز؟

ولم يكن الصبح قد تنفس عندما وجدت الابن يقف عند بوابة المستشفى، وقال وهو يحاول أن يبدو حزيناً:

- ألم أقل لك يا دكتور؟

قلت وأنا أتلقى رشقة أخرى من تعاسة الإحساس بالإثم:

- ماذا؟

- لقد توفيت أمي..

- متى؟

- قبل ساعة واحدة!

- إنا لله وإنا إليه راجعون

في مساء اليوم نفسه.. جاءني إلى العيادة لكي أسلمه صكاً بمبلغ مليون دينار، وقال وهو يدقق النظر فيه:

- كنت واثقاً أنك ستدفع لأنك رجل شريف!

لم أردّ عليه، ولكنني نظرت إليه عرضاً، فرأيت في ملامح وجهه شيئاً ما لم أرتح له.. شيئاً وضعني كرّة أخرى في دائرة الشدّ والتوجس والقلق، وربما التساؤل والشك.

وما أن غادرني الرجل حتى نهضت قائماً وتركت المكتب قائلاً للسكرتير:

ـ اعتذرْ لبقية المرضى نيابة عني، فإنّ أمامي مهمةً عاجلة!

ركبت سيارتي على عجل، ويممت وجهي شطر المستشفى الجمهوري.. كنت حريصاً على أن أصل بأسرع وقت.. أن اختزل المسافة بين عيادتي والمستشفى في لحظات، ولكني تذكرت واقعة يوم أمس، ولعنة السرعة.. فقلت في نفسي وأنا أستعيذ بالله:

ـ أتريد أخرى والضحية لم يبرد دمها بعد؟

اجتزت ممرات المستشفى الطويلة وأنا أمد خطواتي بأسرع ما أطيق.. كنت ألهث، وراحت قطرات العرق تنبجس على جبهتي، وعندما دخلت الردهة التي يسهر عليها طبيب الخفر، وهو أحد تلامذتي في كلية الطب، بادرته دون أن ألقي عليه التحية:

ـ دكتور مازن.. أريدك في مهمة عاجلة..

نظر إلي دهشاً وقال:

ـ رهن أمرك يا أستاذي العزيز.

قلت وأنا ابتلع ريقي والكلمات تتدافع في فمي:

ـ العجوز التي تسببت في وفاتها ليلة أمس؟

قال بنبرة أسف:

ـ يرحمها الله. .

قاطعته بسرعة:

ـ أعرف. .

نظر إليّ بدهشة مرة أخرى وابتسم بخجل، فاستدركت:

ـ أقصد أنني عرفت نبأ وفاتها ولكن. .

قال ووجهه إلى الأرض:

ـ هل ثمة جديد يا دكتور؟

ـ مجرد هاجس دهمني قبل قليل، ولكنه يلحّ عليّ ويتجسد قبالتي حتى يكاد يغدو حقيقة واقعة!

ويبدو أنه لم يدرك قصدي فلم يعقب بكلمة، بينما واصلت حديثي لعلي أصل إلى الهدف مباشرة دونما تمهيد، كسباً للوقت:

ـ العجوز لم تمت!

صرخ دون إرادة منه:

ـ ماذا؟

ـ إذا لم يخطئني ظني. . فإنها قتلت!

كافح خجله لكي أعينه على الخروج من دائرة الغموض:

ـ أوضحْ يا دكتور. . فإن عقلي يكاد يطيش.

لم ألبِّ طلبه حرصاً على الوقت وبادرته بسؤالي:

ـ هل تركت المرأة مع ابنها عبر ساعات الليل؟

أجابني بحرص الطالب الذي يسعى لإقناع أستاذه بأنه لم يقصِّر في شيء:

ـ كنا نتناوب الخفارة في الردهة أنا والدكتور تحسين. .

ـ ولكن هل حدث عبر ساعة ما. . جزء من ساعة. . أن تُرك المرضى في الردهة لوحدهم دون أن يكون إلى جوارهم أحدٌ منكما؟

أحسَّ بشيء من الحرج وهو يقول بتردد:

ـ نصف ساعة وربما أكثر قليلاً لتناول الشاي سوياً. .

وأردف، بعد أن خطف نظرة إليّ لكي يرى ملامح وجهي:

ـ لابد من الشاي. . للاستعانة على السهر!

قلت وأنا أحرك رأسي بأسف، كما لو أن الجريمة الشاذة تتشكل أمامي اللحظة:

ـ لقد قُتلت الأم بيد ابنها نفسه!

صرخ مازن مرة أخرى متجاوزاً حياءه وهدوءه:

ـ لا يمكن!

قلت بيقين أكثر هذه المرة:

ـ المسألة في غاية السهولة. . مجرد ضغط هادئ بالسبابة والإبهام على الحنجرة، وتلفظ العجوز، التي تعاني من آثار الصدمة القاسية وإجهاد القلب، أنفاسها، وليس ثمة دليل واحد لمقتل امرأة نجت بأعجوبة من موت محقق. .

قاطعني مازن وهو يفرك جبهته:

ـ لا أصدق ما تقول.. معذرة يا دكتور.. ولكنْ أن يقتل الابن أمه حالة مستحيلة.. و..

قاطعته بدوري:

ـ إنها الجريمة الكاملة.. ليس ثمة دليل على الإطلاق، فالابن لا يقتل أمه.. والأم تعاني من ضربة قاتلة.. ولكن الصفقة التي عقدها معي قد تغري بهذا؛ خاصة إذا كان الابن من ذلك النمط من الناس الذين لا توقفهم أية قيمة أو دافع أخلاقي، أو وازع إنساني، عن تحقيق مصالحهم وتأمين حاجاتهم..

ـ ولكنها أمه!

ـ أتذكر رواية (الجريمة والعقاب) لدستويفسكي؟

ـ بكل تأكيد.. لقد كانت واحدة من أروع ما قرأته في حياتي

ـ لقد قتل الحفيد جدته من أجل المال..

قال متشبثاً بقناعاته المترعة بالبراءة:

ـ ولكن الأم شيء آخر..

ـ عندما يكون الدافع ملحّاً إلى هذه الدرجة تستوي في المنظور الإجرامي المتغيرات والتفاصيل، تصير كما لو كانت قطع غيار يمكن استبدال إحداها بالأخرى..

قال وهو يحدق في الأرض:

ـ اعذرني يا دكتور.. إذا قلت لك إنني غير مقتنع بالكلية..

قلت وأنا أحس مرة أخرى بحصار الزمن وضرورة الإسراع في إجراءات التحقيق:

ـ سأحاول أن أثبت لك صحة ما أقول، ولكن ليس قبل أن تشمر عن ساعد الجد وتعينني بأقصى ما تستطيع . .

ـ تحت أمرك . . ولكن كيف؟

ـ لقد دفنت العجوز قبل ساعات قلائل، أليس كذلك؟

ـ نعم . .

ـ وتمت كتابة التقرير بخصوص أسباب الوفاة؟

ـ بالتأكيد.

ـ من الذي كتب التقرير؟

قال بشيء من التلعثم كمن أُسقط في يده:

ـ أنا . . يا . . دكتور . .

ـ أيمكنك أن تأتيني بنسخة منه وبالسرعة الممكنة؟

قبل أن يتحرك أوقفته بإشارة من يدي:

ـ لا داعي لذلك، وقل لي ما الذي عرضته في التقرير؟

وللحظات قرأت في ملامح وجهه مزيجاً من الدهشة والتساؤل وربما الإحساس بالندم . . لا أدري على وجه التحديد، وقال هو دون أن يفارقه التلعثم:

ـ نزف في الدماغ أصاب المرأة بسبب عنف الصدمة وتسبب في وفاتها . .

قلت بانفعال . . وأنا أكافح للابتعاد عن دائرة العصبية والإحساس بنفاد الصبر:

ـ هل كشفت بنفسك عن النزف المزعوم الذي لم يتوقف حتى أودى بالعجوز؟

لم يُحر جواباً.. فواصلتُ كلامي:

ـ لا أريد إحراجك يا مازن.. فلا بأس.. ولكن أحب أن تجيبني بصراحة ووضوح كما عهدتك دائماً..

ـ قل يا دكتور..

ـ هل كنتَ إلى جوار العجوز لحظة وفاتها؟

ولم يجد مناصاً من القول:

ـ كلا.

ـ إذن.. كيف أثبتَّ في تقريرك سبباً للوفاة لم تحاول تشخيصه؟

ـ اعذرني يا دكتور.. فإنَّ كل الظروف المحيطة بالموضوع تغري بالصيغة التي كتبت بها التقرير..

ـ أبداً يا مازن.. أبداً..

وقبل أن ينطق بكلمة قلت وأنا أشدد على مخارج الحروف:

لا يهمني مبلغ المليون دينار التي دفعتها إليه ولكني أكره الابتزاز، ولن أسمح للخبيث بأن يلعب عليّ.. والأهم من هذا أنني لن أسمح لجريمة قتله لأمه أن تمرّ دون عقاب..

وقبل أن يدخلني دوامة أخرى من التساؤلات قلت له:

ـ كل الذي أريده منك هو أن تتصل بزميلك في الخفارة، وسأتصل بدوري بشعبة الطب العدلي.. لكي يرسلوا أحد رجالهم.. أريد أن يتم ذلك بأسرع وقت..

قال باستسلام:

ـ حاضر يا دكتور ولكن..

أجبته بنفاد صبر.. وأنا أربِّتُ على كتفيه:

ـ ستعرف كل شيء بمجرد أن نذهب إلى المقبرة ونعيد الكشف على الجثة..

أراد أن يقاطعني مرة أخرى، فقلت له.. وأنا أغادر المكان بحثاً عن أقرب هاتف للاتصال بالطب العدلي:

ـ لقد بدأت الطريق يا مازن في ضوء ومضة غريبة الشعاع.. هاجس ملحّ لم أقدر على دفعه.. ولابد من الاستمرار حتى النهاية.. إن قتل الإنسان جريمة بشعة؛ لأنها قتل للناس جميعاً كما علّمنا كتاب الله.. أما قتل الأم بسبب حفنة من المال فهي أبشع جريمة يمكن أن ترتكب بحق الإنسان..

رحلة الصعود التي لا نهاية لها...

تخترقني كآبة قاسية لا أدري من أين؟ أبحث عن أسبابها في حنايا الضلوع فلا أعثر عليها.. تتسرّب في خلايا روحي كزخّات المطر المنهمرة بغير حساب.. وأتساءل: لماذا؟! وأنا أقف بسيارتي المتواضعة في مكان خالٍ من شارع الغابات، يطلّ على الموصل القديمة التي تقبع خلف النهر، بكتلتها الفريدة، القادمة من زمن بعيد، والتي تعلو مبانيها بعضها البعض في خطوط متعاقبة.. لا يكاد يفصل أحدها عن الآخر سوى زقاق ضيّق يتموج كالأفعى فلا يكاد يُرى..

منذ سنوات.. وأنا أقف هنا، فيما اعتبرته مكاني المفضّل، على تعاقب الفصول وتغاير الأحوال..

ما الذي أريد أكثر من هذا؟. الأشجار الوارفة، والنهر المتدفّق بسخاء، والموصل العتيقة التي تضعني قبالة التاريخ والذكريات.. وثمة الهدوء الذي يلفّ المكان، والذي طالما كنت أجد فيه ملاذي في أعقاب الكدح المتواصل في مصرف الرافدين، والرحيل اليومي القاسي والمتجدّد مع الأرقام التي لا نهاية لها، والتي لا تنبض بأية لمسة إنسانية تخفف شيئاً من اللهاث المتواصل في عمليات الجمع والطرح، والضرب والاختزال..

كنت، بمجرد وصولي إلى مكاني الأثير هذا، بعد تناول وجبة غداء سريعة في البيت أو المصرف، أستعيد صفائي، وأنسى هموم

العمل وروتينه القاسي الذي لا يرحم.. كنت أسترجع فرحي الضائع بين الجداول والصكوك والآلات الحاسبة..

فما الذي يحدث الآن؟ ولماذا هذه الكآبة التي تكاد تعتصرني والتي تلقي ظلالها الرمادية الغائمة على الموصل العتيقة قبالتي تماماً، فما تزيدها إلّا وحشة وشحوباً؟

اللعنة على الأرقام.. قلت في نفسي، وأنا أحاول أن أمعن النظر في النهر المتدفّق أسفل «السدة».. حيث تتداخل الألوان الزرقاء والخضراء والرمادية فتمنحه روعة وجمالاً.. لقد استنزفتني عبر ربع قرن من الوقوع في إسارها..

يبدو أنني لم أكن أحسّ بمنشارها القاسي وهو يفترس وجودي، كالزمن الذي يترصّد بالإنسان.. وعلى حين غفلة، ربما في لحظة من لحظات التكشّف غير الاعتيادية، يتضح كل شيء، كما لو أن إضاءة خارقة سُلطت فجأة على الأشياء، فإذا بالإنسان يبدو وكأنه جذع شجرة متيبّسة تنتظر لحظة تفتّتها وزوالها.. وإذا بكفاح خمس وعشرين سنة يتبلور في بؤرة واحدة.. تضع المرء فجأة قبالة سيل من الأحزان والتعاسات والشقاء..

ها أنا ذا في البؤرة.. قلت في نفسي.. الوعي المخيف يضيء فجأة واقع الحال، ويطالب بكشف الحساب الختامي، قبل فوات الأوان، ولا بدّ من التسديد..

في السنوات الأولى كنت أجد متعتي في الرحيل اليومي مع الأرقام، لاسيما عبر تلك اللحظات التي تتمخض فيها الحسابات عن نتائج محكمة غير قابلة للخطأ بأية نسبة على الإطلاق.

وبمرور الوقت تمرّست على أسلوب في الاختزال الزمني يمكنني من الوصول إلى النتائج الدقيقة، فيما اعتبره المدراء العامون نوعاً من اللماحية النادرة، أو القدرة الاستثنائية في عالم المحاسبة لم تؤتَ لأحد من المحاسبين من قبل..

كان ذلك قبل أن يطلّ الحاسوب على الدنيا.. ويدخل الساحة لكي يسدّ الطريق على الذكاء البشري والحالات المدهشة، والقدرة الأسطورية على اللعب بالأرقام واكتشاف المجاهيل..

وبمرور الوقت، أخذ الملل يتسلّل إلى روحي وعقلي، وأصبحت أمارس المهمة اليومية دونما أي قدر من المتعة، بيد أن ما كان يعزّيني ذلك الطموح النهم لتسلّق درجات السلّم الوظيفي الطويل والوصول إلى القمة.

وجاءت ترقياتي السريعة لكي تختزل الزمن هي الأخرى، وتمنح طموحي مصداقيته، فما يزداد إلا توهجاً.. وما لبثت رحلة الصعود السريع الى فوق أن أصبحت هدفاً بحد ذاتها.. ولكنه الهدف الذي يملأ الجوانح ويستجيب للنداءات، ويمكّن الإنسان من تجاوز لحظات الملل والقرف عبر بضع وعشرين سنة من الوقوع في أسر الأرقام..

لقد غدوت الداء والدواء.. كنت أردّد مع نفسي، ثم ما ألبث أن أتحفّز لاجتياز الخطوة التالية إلى الأعالي.. كفاءتي المدهشة، وإخلاصي الذي قلّ نظيره؛ كانتا الوقود الذي يعين على الصعود.

لكن الأمر لم يدم طويلاً على هذه الحال.. إذ سرعان ما اخترقت بقوة لا تقهر ووجدتُني أضيف إلى الجمر المتألق شيئاً من الفحم والحطب لكي أزيده اشتعالاً.. أصبح الوصول إلى القمة بأي ثمن هو

هاجسي اليومي.. وأحياناً كنت أقول مع نفسي.. ما هكذا بدأت يا رجل!. ثم ما ألبث أن أبرّر الأمر كلّه بقوة الطموح الأسطورية التي تمنح صاحبها أحياناً أساليب مضافة للحركة وتجيز له ما لا تجيز للآخرين.. فالعبرة دائماً في النتيجة.. والنتيجة هي أن أبلغ القمة.. فالذين تربّعوها قبلي ما كانوا أكثر مني كفاءة ولا إخلاصاً، لقد كانوا أقلّ مني بكثير.. وهذا يكفي..

ويوماً بعد يوم.. راحت مفردات مما يدعوه الناس «الأساليب الملتوية»، أو الصيغ «غير المقبولة» تتسلل إلى ممارساتي الوظيفية، وبخاصة مع مدرائي، في محاولة لتطويعهم، لدفعهم إلى مدّ أيديهم إليّ بقوة أكثر، لاجتياز درجة أخرى في السلّم الطويل..

في البدايات كان ذلك يعذّبني، وكنت أرجع إلى البيت مثقلاً مشتتاً مهموماً.. وعبر الليل.. خلال لحظات التوفّز القاسية.. كان الندم يخترقني كالسكين، فأقرر بيني وبين نفسي أنني لن أرجع لمثلها، وأطمئنها بأنني، بمجرد وصولي، سأفعل للآخرين الكثير مما يعجزون هم أنفسهم عن فعله.. وسأعوض ما فات..

لكن، ما أن يطلع ضوء النهار حتى يطرد بأسلوبه الخاص كل الهواجس والظنون، ويخيّل لي أن ما أفعله ليس بدعاً من الأمر، فما هو إلّا الطموح المشروع لرجل شهد العاملون جميعاً بتفوّقه وجدارته.

واليوم صباحاً، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف إلّا قليلاً، دقّ جرس الهاتف، فرفعت السمّاعة بتثاقل.. وأنا منهمك بالتوقيع على حفنة من الصكوك، وما لبثت أن فوجئت بعامل البدّالة يقول:

ـ السيد وكيل الوزارة من بغداد.. معك على الخط!

انتفض قلبي بعنف وازدادت دقّاته، حتى أنني أحسست بالوجع يتسلسل إلى صدري ويضيّق الخناق على أنفاسي..

ـ أهلاً ومرحباً بالسيّد الوكيل.

ـ أهنئك.. لقد صدر الأمر بتعيينك مديراً عاماً للمصرف!

قلت وأنا أدافع ضربات القلب والإحساس بالاختناق، وأتصنّع التواضع:

ـ ولكن..

ـ لقد أُعطيتَ شيئاً مما تستحقه.. إننا نعرف عنك كل شيء.. أهنئك مرة أخرى..

أقفل السماعة.. فهرعت بردّ فعل موازٍ لاقفال الباب كي لا يدخل عليّ أحد.. تلك هي عادتي، أن أخلو إلى نفسي لكي أرتشف الفرحة لحظة بلحظة حتى الثمالة.. ثم عدت ثانية لكي أستلقي على الكرسي الدوّار، وأنا أسحب نفساً عميقاً..

ـ ها أنت ذا أخيراً قد أصبحت مديراً عاماً!

وأحسستُ بموجة من التشتت تكتسحني، وتحاول أن تمتص شيئاً من فرحي الطاغي، فمددت يدي على غير قصد مني إلى الهاتف، ثم ما لبثت أن أعدت السماعة إلى مكانها.

ـ مع من أردتَ التحدث؟

تساءلت مع نفسي دون أن أتلقى جواباً محدداً.. ورحت أتأرجح على الكرسي ذات اليمين وذات الشمال لامتصاص شيء مما يضطرب

في جوانحي، فما ازددت إلّا توتراً، فنهضت قائماً.. ورحت أذرع الغرفة الضيّقة بسرعة، جيئة وذهاباً..

ـ ها أنت قد أصبحت مديراً عاماً!

قلت في نفسي مرة أخرى..

ـ لقد كان اجتيازاً موفقاً.. وأنت اللحظة تقف على قمة السلّم العالي.. ليس ثمة أحد فوقك!

وللمرة العاشرة يزداد وجيب القلب، وتتسارع الضربات الموجعة

ـ هل من حاجة لمراجعة الحساب؟

تساءلت بيني وبين نفسي، وثمة وخزة قاسية اخترقت روحي كالسكين، وأنا أتذكر بعض الممارسات التي اعتبرها الآخرون خارجة عن مطالب الأخلاق الشريفة.

وبذلت جهداً استثنائياً لدفن الإحساس القاسي في طبقة بعيدة والعودة ثانية إلى تيار الفرح والتحقّق الذاتي..

ـ ليس ثمة شيء مما يخدش قناعاتي على الإطلاق.. وما هي إلّا وساوس الشيطان!

وقفزت إلى الهاتف ثانية متذكراً أنَّ عليَّ أنْ أتّصل بزوجتي لكي أزفّ إليها النبأ السعيد.

قالت ورجفة صوتها تصيبني بعدواها:

ـ مديراً عاماً؟

ـ نعم يا إلهام.. ألا يحسن بك أن تهنئيني أوّلاً؟

ـ لقد أنستني المفاجأة.. فاعذرني..

قلت وأنا أقوم باستدارة كاملة على الكرسي الدوّار:

ـ لا تنتظريني ظهر اليوم.

ـ لماذا؟

ـ إنك تعرفينني جيداً.. أريد أن أخلو إلى نفسي، ساعات، هناك في مكاني المفضل قبالة النهر والمدينة العتيقة.. ثمة أشياء كثيرة أريد أن أصفي معها الحساب..

قالت قبل أن تضع السماعة:

ـ أما تعبت من «تصفية الحسابات»؟ ربع قرن وأنت تسبح في تيارها..

وما لبث الزملاء أن قطعوا عليّ خلوتي.. يبدو أنهم سمعوا النبأ.. والبركة في عامل البدالة.. وراح باب الغرفة يطرق بعنف، وجرس الهاتف يدق بإلحاح، ووجدتني مضطراً لاستقبال الزملاء والإجابة على المكالمات الهاتفية..

عيون المهنئين وأصواتهم وملامح وجوههم «بانوراما مفتوحة» على مداها.. كتاب ينطوي على العجائب والمفارقات لمن يعرف كيف يقرأ.. رأيت، وأنا أقلّب سمعي وبصري فيها، المحبة والألفة والوفاء والإخلاص.. ورأيت الغيرة والحسد والكراهية والنفور واللؤم والخداع.. ستار النفاق الشفّاف تمكنت من اختراقه بسهولة، وأنا أقول في نفسي: ليتني لم أُمنح القدرة على هتك الأستار، فإن ما رأيته كان أحدّ على روحي وأعصابي من شفرات السكاكين.. ولكن لا بأس، فما هي إلّا دقائق ويذهب كلٌّ لحال سبيله، يأكل قلبه الغيظ.. أما أنا.. فسأعرف كيف أجترّ الفرح وأطيل أمده ما أمكنني ذلك..

إنني أعرف جيداً أن الفرح، أي فرح، كبيراً كان أم صغيراً؛ لا يدوم طويلاً.. فما هي إلّا دقائق أو ساعات حتى يصبح أمراً اعتيادياً، وقد تقود ردود الأفعال وغرائب النفس البشرية إلى النقيض.. فتضع الإنسان في دائرة الكآبة المقفلة إلى حدّ الاختناق.. ولكنني سأتحدى نزوة النفس وأمنح الفرح مساحة أكبر بكثير مما اعتدته في الخبرات السابقة.. إنها مناسبة نادرة ليست كالمناسبات، وهي لا تتحقق سوى مرة واحدة في العمر.. فليكن جزاؤها عزيزاً نادراً..

وللحظات.. تذكرت ما كانت تقوله عيون بعض الزملاء دون أن تنطق ألسنتهم بشيء، فانغرز نصل حادّ مترع بالسمّ في قلبي، وعكّر علي صفائي.. دافعته بضراوة.. فأصرّ على أن يعرّش هناك.. أعملت فيه مقصّ إرادتي الحادّة التي لم تلن لها قناة، وتمكنت بعد كفاح قاس.. من استئصاله.

- عليكِ اللعنة.

قلت في نفسي.. لطالما مارستِ تعذيبي.. أما الآن.. في هذا اليوم بالذات.. فلن أسمح لكِ!!

ما لبث المدير العام السابق الذي صدر أمرُ نقلِه إلى بغداد بدرجة أعلى؛ أن استدعاني.. فوجدتها فرصة للهروب من سيل المهنئين، الذين اختلطت في كلماتهم المحبة والبغضاء..

هنأني الرجل بحرارة وهو يقول:

- لقد أخذتها بجدارة يا عبد المنعم!

حاولت أن أشكره.. فقاطعني:

ـ أكثر من عشر سنين وأنا أتابع نشاطك المدهش وقدراتك المتميزة وأرفع عنك التقارير إلى الوزارة.. وها قد حان أوان الحصاد..

ـ أشكرك أيها السيد المدير.. وأرجو أن أكون عند حسن ظنك..

وقاطعني مرة أخرى وهو ينهض لكي يحتضنني بقوة وهو يقول:

ـ أرجو لك التوفيق.. وعسى أن ألتقيَكَ لدى زياراتك لبغداد..

أجبته.. وأنا أغسل بمحبّته «سموم الزملاء».

ـ ستترك فراغاً كبيراً في المصرف أرجو أن أسدّ جانباً منه..

اتجهت إلى البوفيه لتناول غداء خفيف، ثم ما لبثت أن تركت المصرف.. دون أن أمرّ على غرفتي خشية أن أتلقى "تهاني" أخرى.. قد تعيدني إلى دائرة الكدر.. وانطلقت بسيارتي إلى مكاني الأثير..

ـ قد أحتاج لأكثر من ساعتين أو ثلاث لتصفية الحساب!

قلت في نفسي، وأردفت:

ـ سأعرف كيف أرتشف الفرحة حتى الثمالة، وسأحاول أن أنفّذ جرداً تاماً للأفعال وردودها، مما تشكل صبيحة اليوم، وأفصل بين ما يجب أن أحتفظ به وما يجب أن يمحى إلى الأبد.. ولكن.. هل سأتمكن من ذلك؟ إنني بقدر ما يتعلق الأمر بالفعل المنظور الذي تصنعه الإرادة، ويدفعه الجهد والذكاء إلى غايته، أعرف كيف أمسك بزمام الأشياء، ولكن حيلتي تخذلني وأنا أحاول أن أهيمن على ما يضطرب في جنبات النفس.. الأصوات التي تهدر فيها والتناقضات

الحادة التي تصطرع في ثناياها.. حاولت كثيراً ولكنني عجزت.. أتراها إحدى المفارقات التي يتحتم أن يتعلم منها الإنسان؟!.

ها هو ذا شارع الغابات الصاعد شمالاً إلى حافات المدينة القصوى، وها أنا ذا ألقي مرساتي قبالة النهر والمدينة العتيقة، متخذاً من هدوء الظهيرة، والأجواء الشتوية، والسماء التي تسحّ مطراً خفيفاً؛ ضمانات مناسبة للانفراد بنفسي.. وحيداً بإزاء الأرض والنهر والأشجار والغيوم والدور القادمة من رحم التاريخ..

تساءلت.. وأنا أتلقى رشقة غير متوقعة من الكآبة.. فألوّح لها بيدي كما لو كانت شيئاً شاخصاً يقف قبالتي:

ـ لن أدعك تمرّين.. لقد عرفت قواعد اللعبة.. ولسوف أوصدُ بوجهك الأبواب..

ورفعت صوتي على غير إرادة مني:

ـ هذا يوم الفرح.. الفرح الذي انتظرته طويلاً، ولن يكدّرني شيء!

وللحظات.. أحسست كما لو أن أحداً ما يسخر مني.. ووسواساً خفياً يومئ من بعيد بأن الأمر ليس بيدي، وأنّني إذا كنت قد اجتزت امتحان الصعود بنجاح.. فإنَّ ثمة امتحاناً أشد صعوبة ينتظرني اللحظة وأنا في القمة، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تعينني على اجتيازه هذه المرة..

وعلى حين غفلة.. وجدتني أمام السؤال المترع بالحيرة والغموض والمرارة والتحدي:

- ثم ماذا بعد يا عبد المنعم؟! ها أنت ذا تصعد إلى الأعلى كما تمنيتَ واشتهيت.. وتصبح - عبر زمن قياسي لم يتسنّ للآخرين - مديراً عاماً لمؤسسة مالية كبيرة.. ثم ماذا بعد؟

وتذكرت وأنا أقف قبالة السؤال، أنني نسيت في دوّامة تعاملي اليومي مع منظومة الأرقام، واستغراقي في جداول الأرصدة والحسابات السنين الطوال، وتشبثي بالصعود السريع إلى أعلى درجات السلّم بقوة الجهدِ الوظيفيِّ المثابر، الذي لم يترك أي هامش «للإنسان» في كياني.. نسيت أنني غدوت أنا الآخر - بشكل من الأشكال - حاصلاً رقمياً أو جدولاً حسابياً رتبت أرصدته بعناية، ولا شيء وراء ذلك على الإطلاق.. لقد اخترت بإرادتي أن أصير رقماً أنا الآخر.. أن أختزل كل الأبعاد والمنحنيات والمساحات الإنسانية في كياني.. إلى معادلة حسابية تضيع فيها الروح وينسحب الوجدان، وتكفّ المتغيرات، ويصمت الوجيب الذي يمنح الحياة طعمها وتدفّقها ... تباعدتُ شيئاً فشيئاً عن زوجتي وأولادي.. انفصلت بمرور الوقت عن نداءات الحياة وهسيسها العذب في طبقات الوجدان الموغلة، وتمحّضت لشيء واحد فقط.. هو ملاحقة الأرقام وتصفية الحساب معها.. والركض السريع عبر درجات السلّم إلى أعلى..

ها أنا ذا اكتشف - فجأة - أنني ضحّيتُ ببطانتي الإنسانية، وسمحت لنفسي أن تدخل في دائرة الأسْرِ في المحدود.. حيث يتمكن العقل من الإمساك بتلابيب المعادلات والأرقام، ولكنه يفقد شيئاً فشيئاً سرّ طلاوة الحياة.. الضائع وسط ركام الجزئيات المنظورة، والمطامح التي لا تملك القدرة على التجدّد والانبعاث ومواصلة الطريق..

ويستفزّني السؤال المحيّر مرة أخرى:

ـ ثم ماذا بعد يا عبد المنعم؟

ـ هنالك أشياء كثيرة أخرى سأعترف لك بها.. اللحظة.. فلقد آن الأوان لتصفية الحساب..

قلت وكأنني أحادث شخصاً ما يقف أمامي..

ـ لقد أنستني الأرقام والمطامح الوظيفية واللهاث المتواصل، شيئاً آخر.. شيئاً أكبر بكثير وأهمّ بكثير..

وللحظات أحسست كما لو أن رجفة تسري في روحي المتغضّنة.. فتجعلها تنتفض كعصفور بلّله المطر.. وصرخت، في محاولة لاختزال معاناة العمر كلّه، وكدحه، وقهره، وإحباطه:

ـ الله!!

ولدهشتي.. تذكرت أنني طوال عملي الوظيفي وكفاحي القاسي للصعود، لم أمحض نفسي لحظة واحدة لله، وأنني أهلتُ التراب، منذ زمن بعيد، على نداءات الإيمان الذي لم يكفّ قطاره عن اجتياز المسافات عبر رحلة التجدّد التي لا تتوقف أبداً..

وقلت.. وأنا أدير مفتاح السيارة استعداداً للعودة:

ـ عبث.. عبث والله يا عبد المنعم! ومع ذلك فإن الوقت لم يفت بعد، وأمامك الكثير!

وما لبثت أن غمرتني موجة من الطمأنينة والرضا.. ما تذوقتُ طعمها العذب من قبل..

ولأوّل مرة في حياتي.. اكتشفت أن بمقدور الإنسان أن يجعل حياته مترعة بالسعادة، أو غارقة بالتعاسة والشقاء، وأنه قد مُنح، لحظة وعيه، المفتاح، ولكنه لم يشأ أن يتعلم.

غادرت المكان.. وأنا ألقي نظرة محمّلة بالودّ للنهر.. والأشجار.. والغيوم.. والمدينة العتيقة.. وقلت في نفسي.. كمن يحسّ بامتنان عميق لكل ما في الوجود من حوله:

ـ سأرجع فأقول لـ «إلهام».. بأنني اللحظة فقط.. بدأت رحلة الصعود التي لا نهاية لها!!

الفرصة الأخيرة

فجأة وجدت حازم إبراهيم قبالتي.. بعد ثلاثين سنة.. يجيئني محطماً، منهكاً، كئيباً، وكأن شيئاً لم يتغير سوى أنه ازداد تعاسة وبؤساً..

واحد من زملائي المقرّبين أيام دراستي الجامعية في قسم علم النفس بجامعة بغداد.. حازم إبراهيم.. الذي أعياني وبقية الزملاء، بشروده المفاجئ عبر جلساتنا الطويلة، وتشبّث نظراته الحائرة بالمجهول.. ها هو ذا يظهر كرة أخرى وكأنه يتحدّاني أن أجد لمعضلته المزمنة حلًّا!

ترددت لحظات قبل أن أجد الكلمات المناسبة للترحيب به.. ووجدتني بدلاً من ذلك، أندفع، على غير إرادتي، كما لو كنت في حلم لكي أسترجع عبر شريط سينمائي يدور سريعاً، رحلتي الطويلة مع النفس البشرية وحالاتها المترعة بالغرابة والشذوذ..

قبل أن أقرر الدخول إلى قسم علم النفس في كلية التربية ترددت طويلاً..

منذ بدايات مبكرة والشوق يدفعني إلى اجتياز بوابات الإنسان للتعرّف على المجاهيل.. قرأت كثيراً.. وأوغلت في مسالكها ودروبها، وأنا لا أزال ـ بعد ـ طالباً في المرحلة الثانوية.. وكنت

أتأرجح بين المتعة والعذاب، وأنا أقوم برحلتي الدورية بين الحين والحين.. عندما اكتشف جديداً.. عندما تتهتّك الأستار عن حالة أو ظاهرة ما وتبدو قبالتي بأبعادها الكاملة.. الدوافع والمعطيات والنتائج المترتبة عليها.. كانت السعادة تغمرني.. ولكن، في المقابل، كثيراً ما كانت تستعصي على إدراكي المحدود حالات وحالات، كنت أبذل جهداً مضاعفاً لتجاوز قدراتي والقفز في المجهول، ومحاولة العثور على المفتاح للدخول إلى عمق الظاهرة والتعرّف عليها.. ولكن يبدو أن ذلك كان مستحيلاً..

ومع ذلك ترددت كثيراً قبل أن أدلف إلى قسم علم النفس، الذي كان يمكن أن يضع خطواتي على الطريق الصحيح، لولا ما كنت أسمع ـ بين الحين والحين ـ بأن هذا القسم لا يعدو أن يكون ساحة تعجّ بالشواذ والمعقّدين، بل ربما بالمهووسين وأنصاف المجانين. وقد أتيح لي بالفعل أن أشهد نماذج منهم وأنا أتردد على الكلية لإعطاء خياري.. نماذج شتى من طلبة فقدوا سويّتهم.. فآثروا اختيار التخصّص الذي قد يفكّ عقدتهم، ويردّهم إلى الطريق.. أو على الأقل، يجيبهم على الأسئلة المحيرة التي قادتهم إلى حافات التلف النفسي، وساقت جملتهم العصبية إلى الالتواء. ولعل بعضهم ـ من يدري؟ ـ آثر هذا الطريق الغريب إلى حدّ ما، من أجل أن يتميّز على أقرانه بالانتماء إلى دنيا مترعة بالغرابة، ويردم فجوة النقص التي حفرتها الخبرات المرّة في أغواره.

مهما يكن من أمر، فقد قبلت التحدّي أخيراً وقلت في نفسي: لا بأس، فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، كما علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والعبرة بالنتائج.

شمرت عن ساعد الجدّ وقررت أن انتهز كل فرصة عبر سنوات الدراسة الجامعية الأربع. . داخل المحاضرات وخارجها. . وخلال اللحظات التي كنت أستطيع فيها أن أحاور هذا الأستاذ أو ذاك من كبار المتخصصين في ميادين علم النفس. .

ومنذ الأسابيع الأولى بدا لعدد من هؤلاء الأساتذة أنني لست كسائر الطلبة الذين يدلفون إلى الجامعة لكي يقضوا في ربوعها سنوات أربع كتبت عليهم، ثم يغادرونها دون أن يحملوا في جعبتهم شيئاً ذا بال. ولم تكن جدّيتي وحدها هي التي لفتت انتباههم، ولكن أسئلتي الملحّة، ومحاولة تجاوز المواد المقرّرة، بمفرداتها كافة، إلى ما وراءها. . لقد كنت بالفعل أسعى إلى عبور حيثيات الزمن واختزال المسافات. . وكان طموحي يدفعني إلى أن أضع قبالة أساتذتي افتراضات لم يكونوا هم قد حسبوا حسابها. وكنت أقول في نفسي: ما دام كل شيء ممكناً في مسارب النفس؛ فلماذا لا نستبق المجهول ونرصد الظواهر والحالات قبل أن تتشكل وتصبح أمراً واقعاً؟

وكان واضحاً أنني سأكون الأوّل على وجبتي عبر سنوات الدراسة الأربع. . ولم أقف بعدها لأرتاح قليلاً. . فواصلت رحلة التخصّص لفك الطلاسم وهتك الأسرار، والبحث عن العلاج الممكن لحالات البؤس البشري ومعاناة النفوس الملتاعة، فإذا قدرت على إنقاذ كائن واحد من هؤلاء البائسين نلت شيئاً من القربى عند الله، وأشبعت في نفسي حاجة ملحّة تتجاوز حدود التحقّق الذاتي بالمعرفة الفريدة، إلى تحقيق ما كان أساتذتي في جامعة السوربون يسمّونه: التضامن بين الإنسان والإنسان.

بعد سبع سنوات عدت إلى بلدي وأنا أحمل معي " الدكتوراه " في علم النفس، مع ليسانس في الطب لا بدّ منها لعالم النفس. ولم أشأ أن ألتحق بالجامعة لكي لا تستنزفني المحاضرات والمطالب الروتينية التي قد تبعد بالمتخصّصين ـ أحياناً ـ عن الميدان، ولذا آثرت أن أفتح عيادة نفسية خاصة بي لكي أضع نفسي يومياً قبالة الحالات المستعصية أو الصعبة، فأعالجها وأتعلّم منها. وقلت في نفسي: إنها فرصة مزدوجة للأخذ والعطاء، وبذلك أواصل طريقي للإمساك أكثر بتلابيب النفس البشرية التي استفزّتني منذ زمن بعيد.

يوماً بعد يوم.. كنت أجدني أتعامل مع حالات شتى، بعضها بسيط مكشوف وبعضها الآخر معقد ذو طبقات موغلة، لا يكاد المرء يجتاز إحداها حتى يجد نفسه قبالة المزيد من الحواجز والسدود.. إنها أشبه بكتلة الثلج العائمة التي لا يبدو منها سوى العشر، وتظل الأعشار التسعة مخفية تحت الماء.

رفضت منذ البداية الأسلوب العلاجي السهل الذي اعتمده جُلّ أطباء النفس للتخفيف من معاناة مرضاهم.. أن يعطوهم حفنات من الحبوب المهدّئة أو المخدّرة أو المنوّمة التي تمنحهم ساعة أو ساعتين من الاسترخاء.. ثم ما يلبث الشدّ النفسي أن يزورهم كرة أخرى لكي يضعهم في دائرة العذاب، بعد أن يكونوا قد خسروا أوقاتاً مقتطعة من أعمارهم المحدودة، وبعد أن تكون المهدّئات قد افترست هذا الجانب أو ذاك من سويّتهم البيولوجية. إنها نوع من الهروب عن مجابهة المشكلة في عمقها الحقيقي.. هكذا كنت أردّد في نفسي، ورفعت ـ بدلاً من ذلك ـ شعار: الصبر، الذي يرفض العجلة والبحث عن المردود السريع الذي يحقق ظاهراً الشفاء للمرضى، لكنه يسوقهم إلى الدمار على المدى البعيد، حيث تظل العقدة تنخر في كيانهم وتزداد تجذّراً.

رمقني حازم وأنا أشرد طويلاً بنظرة امتزجت فيها الدهشة بالعتاب.. ابتسمت في وجهه بمودّة.. وقلت وأنا أربّت على كتفه:

ـ معذرة فقد جرفتني الذكريات.. وهو على أية حال ذنبك، وليس ذنبي!

أراد أن يتساءل عن السبب فبادرته بالقول:

ـ لقد ردّتني زيارتك المفاجئة إلى ثلاثين سنة خلت.. فوقعت في أسر التداعيات.. إنك تعلم كم كانت سنوات الدراسة الجامعية عذبة سعيدة؟ وعندما ألتقي عرَضاً بأحد زملائي في الدراسة؛ أكاد أمارس نوعاً من النكوص إلى براءة الماضي وأحلامه، هروباً من ضغوط الواقع، وصخبه، وأحزانه..

قال بنبرة مترعة بالأسى والإعياء:

ـ إننا مسحوقون يا دكتور سعدي..

لم أشأ أن أدخل معه مباشرة دائرة روتينيات الكشف، وتلمّس أسباب العلاج، لأنني كنت متشبثاً حتى تلك اللحظة باسترجاع الماضي، من خلال زميل يبرز أمامي فجأة بعد غياب ثلاثين سنة!

ـ وما الذي فعلته عبر هذا المدى الزمني الطويل؟

لم يدرك سؤالي، أو لعلّه بخلافي تماماً، كان يستعجل الدخول مباشرة إلى الموضوع الذي جاء من أجله.. أن يجد فرصة، ولو ضئيلة للخروج من محنته. فقال وهو يحاول أن يرسم بصعوبة ملامح ابتسامة على وجهه المتغضّن:

ـ ها أنت ذا تراني ... إنها أربعون سنة من المعاناة، وعشرات السنين من الكفاح المتواصل للبحث عن الخلاص.. والنتيجة.. لاشيء!

ووجدتني مرغماً على أن أدخل معه الموضوع مباشرة، ولكن ليس قبل أن أعيد عليه السؤال:

- وما الذي كنت تعمل منذ تخرّجك؟ هل مارست التدريس؟.. أم..؟

قاطعني وهو يكافح لتجاوز نفاد الصبر الذي غطى ملامح وجهه:

كما ترى، فليس أمام خريج قسم علم النفس سوى التدريس في المتوسطات والثانويات..

- وكيف كانت رحلتك مع التدريس؟

قال بسرعة.. وكأن الإجابة معلّقة على شفتيه:

- زفت وقطران!!

أدركت أن معضلته من الحالات الصعبة، واخترقت ذاكرتي كالشهاب الأزمة التي كانت تنتابه منذ زمن دراستنا الجامعية..

عندما كنا نجلس معاً بصحبة حشد من الزملاء في النادي أو في فناء الكلية، وأحياناً عبر أمسيات القسم الداخلي الطويلة، كان يشاركنا الحوار في اللحظات الأولى، وعلى حين غفلة كنا نلحظ ملامح وجهه تتغضن، وهي تتلقى على ما يبدو دفقة من الكآبة القادمة من طبقة ما في تكوينه النفسي، أو خزينه العقلي، فما يلبث أن يؤثر الصمت..

والاحتماء بالصمت مسألة اعتيادية، وقد تكون فرصة طبيعية مبرّرة للانفصال عن الآخرين والخلوّ إلى النفس.. لتصفية الحساب مع مراراتها وعذابها.. لكن الظاهرة التي جذبت انتباهنا جميعاً، أنه كان وهو يلوذ بالصمت يركز نظراته على نقطة ما.. نقطة قد تكون على

مرمى حجر منا، وقد تكون بعيدة موغلة يصعب تحديد الفضاء الذي تتمركز فيه.. وتمرّ الساعة والساعتان وهو ينصت إلينا وكأنه حاضر معنا تماماً، لكنه ما كان يشاركنا الحديث على الإطلاق.. وأكثر من هذا، كنا نستفزه أحياناً بسؤال أو إثارة ما فيكتفي بابتسامة لا تتجاوز حافة شفتيه ولا تكاد تعني شيئاً..

في المرّات الأولى.. كنا نستثقل وجوده معنا، لكن.. وبمرور الوقت، اعتدنا ذلك، بل إن حالته هذه أصبحت من ضرورات (الديكور) باعتبارنا طلبة في قسم علم النفس بالذات!

وكعادتي مع مرضاي ترددت قبل أن أوجه إليه أحد أسئلتي التقليدية:

ـ هل لا تزال تعاني من حالة الانفصال عن الآخرين يا حازم..

قال وهو يتحفز للإجابة على المزيد من الأسئلة:

ـ لهذا جئتك..

ـ ولماذا لم تجئ قبل هذا اليوم؟

ـ سوء حظي كما ترى.. ثم إنني لم أقصّر في البحث عن سبل الخلاص، فراجعت العديد من الأطباء..

لم أجد الفرصة ملائمة للإلحاح في عتابه، ثم إنني رأيت أن ذلك قد يكون نوعاً من الغرور، فسألته محاولاً أن أغيّر مجرى الحديث:

ـ ألم تجد عبر هذا المدى الزمني المتطاول أيَّ قدر من التحسّن؟

قال يائساً:

ـ تحسّن؟ على العكس.. ما ازددت إلّا تعاسة وبؤساً، وها أنت ذا تراني أمامك!

في اللحظات التي كنت أحاول فيها ترتيب أفكاري للبدء في التعامل مع الحالة، كان حازم قد انفصل عني وجرفه الشرود اللعين.. كانت عيناه تحدّقان في نقطة ما في فضاء الغرفة، بينما كان وجهه يزداد شحوباً، ووجدتني مرغماً على اعتماد المنبّهات العصبية لردّه إلى الواقع.. إنني أكره هذه أيضاً.. ما يسمى بالرجّات الكهربائية، ولكن لا بدّ ـ أحياناً ـ مما ليس منه بّد

وقال حازم وكأنه يفيق من حلم:

ـ هل كنت تسألني عن شيء ما؟

ـ أبداً.. وأحب أن أطمئنك إلى أنه ليس ثمة حالة تستعصي على العلاج!

ـ هذا ما أرجوه يا دكتور سعدي.. فقد سمعت عنك الكثير، ولعلك تتساءل مرة أخرى عن عدم لجوئي إليك.. لعلّه الخجل.. فأنت تعرفني جيداً منذ سنوات الدراسة الجامعية.. ثم ما لبث كل منا أن ذهب في طريق.. هذا التباعد الزمني يشكل أحياناً حواجز من الخجل يصعب اجتيازها بين الزملاء، فكيف إذا كانت في حالتي محاولةً لعرضِ عيوبي على زميل يملك القدرة على هتك الأسرار؟

قلت، محاولاً إقامة جسر ما بيني وبينه:

ـ بقدر ما يتعلق الأمر بي فإنني لا أعتبرها عيوباً..

ـ لا تكن مجاملاً.. أرجوك..

ـ ثق يا حازم أنني لا أجاملك، فالصدق في العيادات النفسية هو البداية الصحيحة، وإلّا أفلتت الخيوط من أيدينا.

قال وهو يحاول أن يستنشق الهواء بعمق:

ـ لم يبق في العمر متسع، وما انقضى أكبر بكثير مما تبقى.. ولكن الإنسان يتشبث بالأمل حتى آخر لحظة من حياته..

ـ إنه حقك المشروع، وهو فضلاً عن ذلك إشارة خضراء على أنك تمضي في الطريق الصحيح.

ومن أجل أن أقطع الشك.. جرّبت معه كل الطرق العلاجية التي تعلمناها من كبار علماء النفس الغربيين ومؤسسي المدارس المعروفة في علم النفس.. ومضت أيام وأسابيع وأنا أحاول.. إنها مجرد كشوف لجانب ما من الخبرة النفسية لكنها ليست نهاية المطاف.. كما أنها لا تغطي المساحة كلّها، لذا فهي قد تخطئ وقد تصيب. وكنت أرثي دائماً لأولئك الأطباء الذين تنتشر عياداتهم في مدينتي، والذين كانوا إذا تعاملوا مع منهج أو طريقة ما اعتبروها الحق المطلق، واستدعوا أساليبها في العمل وكأنهم يدخلون معبداً مقدّساً.

تجادلت معهم كثيراً فلم أصل إلى شيء، رغم أن محاولاتهم في معظم الأحيان لم تأت بطائل. وكنت أقول في نفسي: سيجدون أنفسهم يوماً يفيئون إلى الحق، فيتحرّرون ولو قليلاً من حالة التقديس والانجذاب، التي يمارسون بها تعاملهم مع تلك المذاهب أو إعجابهم برجالاتها.

لجأت إلى التحليل النفسي.. ووضعت حازم إبراهيم على (الشيزلوتك) عبر أيام متعاقبة، لاختراق القشرة الخارجية للأنا العليا،

والإيغال باتجاه الأنا السفلى، وردود أفعالها المتراكمة تجاه مسلسل الكوابت الذي لا ينتهي، في محاولة للعثور على العقدة الأولى وتفجيرها من أجل تحرير الرجل من معاناته، كما كان (فرويد) يؤكد.. فلم أصل إلى شيء.. تحوّلت إلى (بافلوف) وتابعت شبكة الاقترانات الشرطية المبكرة في حياة زميلي، في محاولة لفك الارتباط، وجعله يفيء إلى نفسه، ويتجاوز شروده المحزن الذي هو في نهاية الأمر نوع من الهروب من مؤثر.. أو اقتران ما بذكرى أو حالة أو حادثة.. فلم أحقق شيئاً..

ما من مذهب أو أسلوب إلّا واتبعته معه، تبرئة للذمة كما يقولون، وتشبثاً بالحلّ الذي ينقذه من أزمته المستعصية..

هذا ما فعلته لسنوات طويلة مع مرضايْ.. أحياناً كانت المحاولات تقودهم إلى الشفاء، ولكن، وفي معظم الأحيان، لم تكن المسألة أكثر من نوع من الخداع نمارسه ضد أنفسنا ومرضانا، للتحايل على الحالة، وإقناع الطرفين بأن هناك ـ فعلاً ـ محاولة جادة للعلاج..

وقال حازم يوماً وهو يهمّ بمغادرة العيادة ووجهه تغمره الكآبة:

ـ هل تنصحني بأن أكفّ عن مراجعتك.. فأريح وأستريح؟

قلت وأنا أربّت على كتفه:

ـ غداً سيبدأ العلاج الحقيقي!

غمرته الدهشة وتتابعت الكلمات في فمه:

ـ وما الذي كنا نفعله عبر هذه الأسابيع الطوال؟

أجبته وأنا أبتسم:

ـ محاولة لتبرئة الذّمة!

لم يدرك قصدي فأردفت:

ـ يبدو أنه قدّر علينا أن نمرّ (بونغ) و (فرويد) و (بافلوف).. والخط الطويل من علماء النفس الغربيين الذين اجتهدوا في طرائق العلاج.. إنها التقاليد التي يسمّونها: "علمية".. والتي تفرض نفسها على الإنسان.. حتى ولو لم يكن مقتنعاً بها تماماً.. و..

قاطعني بشيء من التردّد والخجل:

ـ فلماذا.. إذن.. حاولت.. و

قاطعته بدوري:

ـ أعرف يا حازم، ولكنها كما قلت لك محاولة لتبرئة الذمة، فمن يدري لعلّ إحداها كان يمكن أن تقودنا إلى المطلوب..

عاد إليه نفاد صبره، وقال وهو يضع يده على أكرة الباب:

ـ وماذا بعد؟

ـ غداً سأعطيك الجواب.

غمرته الحيرة كرة أخرى فلم أشأ أن أجعله يتخبط في أسرها، فأردفت:

ـ البعد الذي طالما غاب عن الآخرين.. إنه الكشف والعلاج معاً.. لقد جرّبته مع مرضاي فمنحني وإياهم نتائج مدهشة!

تساءل حازم بلهفة كأنه يتعجل فك ما بدا له طلاسم وأسراراً..

ـ ماذا يا دكتور سعدي؟

قلت وأنا أتذكر مرضاي الذين اجتزت بهم المتاهات وأوصلتهم - بمعونة الله - إلى شاطئ الأمان. .

- الإيمان يا حازم، إنه يملك قدرة مذهلة على الكشف. . والعلاج. . لكننا للأسف طالما أغفلناه. .

- ولكن. .

وتذكرت وأنا أرجع قليلاً إلى الماضي أن حازم كان من بين القلّة من زملائي ممن لم يتذوقوا حلاوة الإيمان. . وأنه ظل طيلة سنوات الدراسة الجامعية بعيداً عن الله، إلى درجة النزق، وربما الخصومة والعداء لكل ما يمتّ بصلة بالدين والخبرة الدينية من قريب أو بعيد. . وقلت له:

- إن بين أيدينا يا حازم كنزاً. . ولكننا على ما يبدو لم نستثمره أو لم نكن أهلاً له.

نظر إلي متسائلاً، فقلت بهدوء:

- كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام

أراد أن يقول شيئاً فأردفت:

- لم نحاول للأسف أن نؤسس من إضاءتهما المدهشة للنفس البشرية، علماً أو منهجاً يمنحنا الفرصة لإنقاذ المعذّبين والمأزومين. . وأملي أن يجيء ذلك اليوم وهو قادم لا ريب فيه. . ولكن حتى ذلك الحين، فإن أمامنا نحن الأطباء النفسانيين فرصة طيبة للإفادة من الكنز ولو بشكل مجزوء. . ومع ذلك فإن هذه الإفادة قد تكون أكثر قدرة

على التعامل مع النفس البشرية من جلّ المحاولات التي استعرناها من هنا وهناك!

لا أدري إن كان حازم قد اقتنع بكلامي أم لا، كما أنني لم أكن أدري حتى تلك اللحظة إن كان زميلي الذي سبق وأن نفى نفسه من ساحة الإيمان، قد فاء إلى الله أم لا.

ولكن يكفي أنني أدركت جدوى هذا الأسلوب واقتنعت به حتى أعمق نقطة في كياني، وجرّبته مع العديد من الحالات فأعطاني نتائج مدهشة. وقلت لحازم، وأنا أحاول أن أنقل اليه شحنة اليقين التي تصنع المستحيل:

- لم أفعل لحدّ الآن شيئاً معك، وسوف تجد عبر الأيام القادمة ما الذي تعنيه كلماتي.

أجاب وهو يهمّ بمغادرة المكان وملامح وجهه تتعاقب عليها دفقات الشك واليقين:

- أرجو ذلك يا دكتور سعدي، وهي على أية حال فرصتي الأخيرة!

الموت شبعاً

وأخيراً.. ورقة اليانصيب تصيب الهدف، ويعلَن عن اسمي فائزاً بالجائزة الأولى وقدرها ثلاثة ملايين دينار.

كنت قد بلغت درجة من اليأس بعد عشر سنوات من الإخفاق المتواصل.. والمبالغ المهدورة التي اشتريت بها شهراً بعد شهر عشرات البطاقات اقتطعت أثمانها من موردي التافه.. دون جدوى.

وفي كل مرة كنت أقول في نفسي: من يدري، لعلّي هذه المرة سأحصل على المطلوب، وينقلب الحظ العاثر بقدرة قادر إلى النقيض فيمنحني الأمنية الغالية.

كان ثمة إحساس ديني فاتر يحيك في نفسي، ويذكرني بين الحين والحين بأن المال الحرام الذي تأتي به سحبات اليانصيب لا يمكن أن يقود صاحبه إلى السعادة الحقيقية، ويلبّي حاجاته ويطفئ رغباته بالشكل المرجو.. بل ربما على العكس، يقوده إلى الدمار.. ولكنني مدفوعاً بشهية جارفة لكسب التحدّي كنت ألاحق هذا الإحساس في حنايا ضلوعي، في محاولة لإسكاته بل استئصاله. وقد تمكنت أخيراً من المطلوب، ومضيت في ملاحقتي المستميتة للربح الأسطوري الذي تعِد به السحبات الموسمية.. دون جدوى.

ها هي ذي الجائزة الكبرى إذن.. ثلاثة ملايين دينار!

قرأت اللافتة الكبيرة المعلقة على واجهة المحلات المخصصة لبيع أوراق اليانصيب: ماجد ياسين محمد شيت.. الفائز بالجائزة الأولى وقدرها ثلاثة ملايين دينار.

تمنيت لحظة سماعي النبأ من أحد أصدقائي أن لو يكون لي جناحان.. فأحلّق بهما في السماوات السبع!! لم يعد يسعني شيء، واستعصى عليّ احتواء الفرحة الكبرى التي ما لبثت ـ لا أدري لماذا ـ أن انقلبتْ همّاً وقلقاً واكتئاباً، ولكنني وأنا أمضغ عذابي غير المبرّر بصمت، كنت أقول في نفسي: لا بأس فإنما هي ردود الأفعال العنيفة للفعل العنيف نفسه، وليس الحصول على ثلاثة ملايين دينار أمراً اعتيادياً، إنه ـ إذا أردتُ الحق ـ حالة «خارقة»، وربما عرضاً مرضياً كالسرطان المفاجئ الذي ينقض على حين غفلة فلا يقدر المريض على احتوائه. ولكن ـ مرة أخرى ـ لا بأس، فما هي إلّا ساعات وأستعيد فرحي الضائع الذي انتظرته أكثر من عشر سنوات.

لم يكن لي زوجة ولا ذرّية، ولا أخوة ولا أخوات.. مقطوع من شجرة كما يقولون.. ما كان يهمني.. هو أن أشبع.. أن آكل كما يأكل الآخرون.. ما خطر على بالي مطلقاً أن ضربة الحظ إذا منحتني نفسها فإنني سأحوّلها فوراً إلى هموم الناس التقليدية: الزواج والبيت و.. و.. كل ما كنت أحلم به.. هو أن أشبع جوعاً للّقمة الطيبة، عرّش في إحساسي منذ زمن بعيد، ومدّ جذوره هناك، وأخذ يطالبني برغبته الجارفة بإلحاح.. يزمجر كلما نسيت أو انهمكت في أمور أخرى وكأنه يقول: يا ماجد!. إذا كان من هم دونك يأكلون ويشبعون، فلماذا لا تأكل وتشبع أنت الآخر؟!.

وتذكرت وأنا أقف قبالة محلّ اليانصيب، أحدّق في اللافتة الكبيرة ببلاهة، كيف أن مجرد مروري بموازاة واجهات المطاعم الفخمة كان يعذّبني.. وكنت أحدّق بطريقة لا تدل على أي قدر من الذوق، في الجالسين هناك، فيما وراء الواجهات الزجاجية، يتحلقون حول المناضد المصفوفة بعناية.. يأكلون بنهم أو ينتظرون عمال المطعم لكي يجيئوا بطلباتهم.. كنت أخترق الزجاج، وأكاد أمدّ رأسي قريباً من رؤوسهم وهم يطالعون بشغف، ولعابهم يسيل، قائمة المأكولات التي يعدّها المطعم، وأكاد أصرخ أحياناً وأنا أتوهّم بأنني قد وضعت إصبعي على هذا الصنف أو ذاك قائلاً للعامل: قوزي على تمّن مع طبق من سكالوب الدجاج ولا تنس المقبّلات..

ما ألبث أن أتذكّر فيحاصرني الجوع والقهر وأقول في نفسي: اللعنة على التشهّي، إنه كالتوابل الحارّة تحفّز شهية المرء ولا تزيده إلّا جوعاً.. وما ألبث أن أغادر المكان محاولاً أن أنسى.. متشبثاً بالاندماج مع المارة وبعثرة النظرات الفارغة هنا وهناك.

لكن المشكلة أن المارة أنفسهم.. معظم المارة.. يبطئون خطاهم عند كل مطعم.. يتردّدون قليلاً، ويهمس بعضهم لبعض بكلمات لا أدري ما هي، ثم ما يلبثون أن يدلفوا لكي يمارسوا اللعبة المعذبة نفسها: التحلّق حول المائدة، وتلقي قائمة المأكولات؛ واختيار الأصناف الطيبة، ثم البدء بالتهام الطعام.. أتراني سأقف مرة أخرى لمتابعة اللعبة؟

نعم وبكل تأكيد، فها هو ذا الوحش المتربّص في أحشائي.. ما يسمى بالجوع الذي لا يرحم.. الجوع الذي جاوز طفولته منذ زمن

بعيد، وكبر. . كبر كثيراً، وها هو الآن يتقدم إليَّ بمطالبه الباهظة، ولم تعد تخدعه اللعب الصغيرة، أو الخدع التي كنت أصرفه بواسطتها عن إلحاحه المتواصل.

أقف مرة أخرى وأتابع. . لا يمنعني حياء أو خجل، أو ما يسميه الناس بالأصول المتعارف عليها. . لو أنهم جاعوا كما أجوع، لو أنهم أسكتوا صيحات بطونهم بالصبر الذي يفوق حدود الاحتمال. . لو أنهم ذاقوا ويلات الحرمان والتشهّي الذي لا يتمخض عن شيء سوى المزيد من الإحساس بالجوع. . لما قالوها، ولفعلوا مثلما أفعل. . وأتحدّاهم. . نعم أتحدّاهم، لأنني جرّبت، ومن جرّب ليس كمن لم يجرّب.

ها أنت يا ماجد على بعد خطوات من حلم العمر. . أن تأكل ما تشاء، وتتلذذ بالطيبات التي خلقها الله للناس. . أن تدخل المطعم الذي تريد، وتجيل النظر في قوائم الطعام لكي يجيئك ما تريد.

خطوات فحسب وتقبض الجائزة الكبرى. . ثلاثة ملايين دينار. . وستثأر من سنوات الجوع والحرمان.

صحيح أنك الآن تدلف إلى الستّين، وأن التلف والسوس بدأ يلاحق أسنانك واحداً بعد الآخر. . ولم تعد معدتك تهضم الحجارة والحصى كما كانت تفعل. . إلّا أنك، مع ذلك، تملك القدرة على التعامل مع اللقمة الطيبة، بل والتفنّن في تذوّقها وازدرادها. . إن سنوات الجوع والحرمان تتجمع اللحظة لكي تشكل في بنيتك الهضمية قدرة أسطورية على التعويض!.

تقدمت متردّداً إلى محل بطاقات اليانصيب.. وقفت مباشرة تحت قطعة القماش الواسعة التي تحمل اسمي وبجواره الرقم الكبير، وأمسكت حافة المنضدة التي تقبع عند المدخل حيث كان يجلس في طرفها الآخر صاحب المحل..

حيّيته بحرارة فلم يردّ علي، بل إنه لم يكلف نفسه حتى عناء رفع رأسه للتعرّف على الزائر الجديد.. كان منهمكاً حتى شحمة أذنيه في متابعة مجموعة من أوراق اليانصيب، والتحديق في أرقامها..

ومن أجل كسب الوقت وإثارة اهتمامه رفعت صوتي قائلاً دون مقدمات:

ـ ماجد ياسين محمد شيت..

استمرّ على لا أباليته وانهماكه في متابعة أرقام البطاقات وفجأة، وكأن وخزة ما أصابت جملته العصبية، رفع رأسه وقال والدهشة تغمر ملامح وجهه:

ـ صاحب الحظ الكبير؟! أنت؟!.

نهض قائماً ومدّ إلي يده مصافحاً ومهنّئاً.. وللحظات شعرت أنا الآخر كما لو أن وخزة ما اخترقت جملتي العصبية.. لم أرتح لعبارة البائع، وأحسست أنني مقبل على مجابهة تحدٍّ يفوق طاقتي، وقد يسحقني في نهاية الأمر: الحسد.. هذا الغُول البشع ذو الأنياب الزرقاء الحادّة.. أجبته باقتضاب:

ـ نعم أنا هو..

ـ أهلاً.. ومرحباً

وبدون أي قدر من المجاملة قلت:

- ما هو المطلوب مني كي أقبض المبلغ؟

- ليس قبل أن تجلس وتشرب الشاي.

ومدّ يده لكي يرفع الحاجز الصغير الذي يفصل مدخل الدكان عن الرصيف، فوجدتني مضطراً للدخول.

جلست إلى جواره وأنا أعاني من الضيق ونفاد الصبر.. وقال كمن يتكلم بالسرعة البطيئة في جهاز التسجيل:

- الأوراق الثبوتية يا سيّد ماجد

ازداد ضيقي ونفاد صبري وأنا أسأله:

- مثلاً؟

- البطاقة الشخصية أو الوظيفية، هوية الأحوال المدنية، شهادة الجنسية العراقية، وبطاقة تأييد السكن موقعة من مختار المحلّة ومصدّقة من مركز شرطة الحيّ..

انعصر قلبي وأنا أتذكر كيف أن عليّ أن أعود إلى الدار لكي آتيه بهذه كلّها، وازدادت تعاستي عندما تذكرت - أيضاً - أنني لم أنجز لحدّ الآن شهادة الجنسية العراقية وبطاقة تأييد السكن. وقلت له بلهجة تنطوي على شيء من التوسّل والرجاء.

- ألا تكفي الهوية، ووثيقة الأحوال المدنية؟

أجاب بحسم:

- إنها الإجراءات يا سيّد ماجد، وإننا ملزمون بالمطالبة بها قبل إحالتك إلى المصرف لتسلم المبلغ..

وقلت في نفسي: إن المبلغ كلّه ـ فيما أكد لي أحد الأصدقاء ـ حرام فماذا لو وظفت شيئاً منه في الحرام؟

ـ سأعطيك مكافأة سخية.. فقط أعِنّي على تجاوز المطالبة بالجنسية وتأييد السكن!

أجاب وعيناه تنحرفان قليلاً باتجاه نقطة ما لم أكد أتبيّنها:

ـ الأمر ليس بيدي لكي أتساهل معك.. كنت أتمنى ذلك، لكن المصرف نفسه سيطالبك بها بكل تأكيد..

غادرت المحلّ مكروباً دون أن يكون في ذهني هدف محدّد للتوجه نحوه.. ثم ما لبثت أن يمّمت وجهيّ صوب البيت لأخذ كل ما يتعلّق بالموضوع.

وبدأت الرحلة الصعبة لإكمال الأوراق الثبوتية.. كان كل يوم يمرّ دهراً طويلاً.. وأعود إلى البيت مرهقاً مكدوداً وأنا أقول في نفسي: متى ستنجز المعاملات وأقبض المبلغ وأبدأ لعبة الثأر الوحشية.. متى؟

ما كان يحاصرني أكثر: نظرات الغيرة والحسد التي كنت ألمحها في عيون أصدقائي وأقربائي وهي تخترقني بعنف وتغرز سكاكينها الحادة في أعصابي.. لقد سرى النبأ سريان النار في الهشيم، ولم يبق ثمة من لم يسمع بحصول ماجد ياسين على الجائزة الكبرى.. بعضهم كان يتعامل معي تلميحاً وبعضهم تصريحاً.. وفي كلتا الحالتين وجدتني أندفع أكثر فأكثر باتجاه دائرة الخوف من المجهول.. اللعنة على الحسد إنه يعرف كيف يفترس سعادة الناس في لحظات، بعد أن أفنوا أعمارهم في محاولة القبض عليها.. وكان السؤال الذي أخذ يكرر نفسه على ألسنتهم كثيراً:

ـ ما الذي ستفعله بهذا المبلغ الكبير يا ماجد؟

أجيبهم وأنا ابتلع ريقي بصعوبة:

ـ الله أعلم!

ـ ولكنك أنت صاحب القرار!

وأعيد عليهم القول كمن يحاول أن يهرب من الخوف الجاثم على بعد خطوات:

ـ الله أعلم!

وأخيراً، وبعد شهرين من المعاناة أكملت الوثائق المطلوبة وتوجهت فوراً إلى المحل إياه وقلت لصاحبه دون مقدمات وأنا أضع على المنضدة قبالته تماماً حزمة الوثائق:

ـ ها هي ذي.

قال معاتباً:

ـ أما كان الأولى أن أتلقى تحيتك أوّلاً؟

اضطربت الكلمات في فمي وأنا أحاول أن أجد عذراً:

ـ آسف.. ولكنني.. كنت.. قد تعبت تماماً في محاولة إنجاز المعاملات.. وعلى أية حال فإن..

لم يلتفت لكلامي وراح يتأكد من الوثائق بإلقاء نظرة فاحصة على كل واحدة منها، ثم ما لبث أن وضعها في إضبارة وألحق بها كتاباً إلى مصرف الرافدين.. وقبل أن يسلّمني إياها قال:

ـ أرجو أن تكون عند وعدك..

لم أنتبه إلى المقصود فنظرت إليه متسائلاً وشيء من السذاجة يغمر ملامح وجهي:

ـ ماذا؟

ـ الأتعاب؟!

أجبته بسرعة وأنا أمسك الإضبارة بقوة كمن يخشى على محتوياتها من الضياع:

ـ بكل تأكيد.. ولكن ليس قبل أن أتسلّم المبلغ..

غادرت المكان ميمّماً وجهي صوب المصرف وأنا أقول في نفسي ليس بينك وبين المال سوى خطوات فحسب.. ثم ما لبثت أن انكمشت قليلاً وأنا أتذكر "عيون" المعارف والأقرباء، وسكاكين الغيرة والحسد التي تحاصرني من كل مكان..

ـ لا بأس.. فليس ثمة في هذه الحياة الدنيا متعة نقية كالبللور، خالصة تماماً من أي منغّص.

وحاولت أن أزيد نفسي اقتناعاً:

ـ ثم إن هذه المنغصات إنما هي كالملح في الطعام تزيده لذة وتمنحه طعماً أطيب..

وعلى حين غفلة انتفضت شهيتي للطعام كرة أخرى، بعد أن كان القلق والإرهاق واليأس من إنجاز المعاملات قد دفنها في مكان بعيد.

ـ اصبر قليلاً يا ماجد.. فما هي إلّا ساعات قلائل ويبدأ مسلسل لقاءاتك بالمحبوب!

وبالفعل، تمكنت خلال ساعات قلائل من إكمال مطالب.. المصرف.. وإيداع المبلغ في حساب نصحني أحد الموظفين بفتحه باسمي.. بعد أن دسست في جيبي مصاريف الأيام القادمة وفق ما تصوّرته الوتائر العليا في الإنفاق!

بعد ساعة أو ساعتين بدأت ملحمة الثأر من الحرمان.. اجتزت شارع الدوّاسة الذي يغصّ بالمطاعم الأنيقة، على مهل، ورحت أعاين من وراء الواجهات الزجاجية ما يتناوله الزبائن من الألوان.. وأثبت في ذاكرتي ما الذي سأتناوله أنا الآخر.. ومن أجل المزيد من الإحساس بالسّعادة، والردّ العنيف على الذكريات المريرة قلت في نفسي: لسوف أطيل التجوال قبل أن أبدأ الجولة الأولى.. فشتّان بين حالتي السابقة التي كانت تحاصرني بالنكد وبين وضعي الآن بعد إن أصبحت قادراً على تحقيق المطلوب!

وأخيراً، وبعد أن طفح كيل الجوع، وبلغ سيله الزبى، كما يقولون، دخلت مطعم (المنقل) ذي النجوم الأربعة الذي طالما فغمتني روائح شوائه المشهور، وقلت للعامل قبل أن يسألني:

- طبق من الكباب..

هزّ رأسه وأراد أن يتحرك تلبية لطلبي، فاستوقفته:

- لحظة واحدة.. أريد دجاجة مشوية مع الرز.. وطبقاً من الفاصوليا الخضراء..

نظر إلي بشيء من الدهشة وسألني بحياء:

- هل معك شخص آخر؟

ـ أبداً.. ثم إنني أريد تشكيلة كاملة من المقبلات..

وخلال أقل من ربع الساعة كنت قد ازدردت الموجود.. وبذلت جهداً صعباً في الإتيان عليه كاملاً.. وأنا أقول في نفسي: ما دمت قد طلبته، وما دمت سأدفع الحساب فلا بدّ من الإجهاز عليه.. وإلّا فإنه البذر منذ الجولة الأولى، ولن أسمح له بأن يهزمني..

وأنا اجتاز شارع الدواسة عائداً إلى شقتي الضيّقة في محلة السرجخانة.. بدأت أحسّ بشيء من التعاسة التي يصعب عليّ تشخصيها.. لعلّها مزيج من التخمة وانطفاء الشهية والخوّف من أن أفقد الرغبة العارمة في التعامل مع متع الطعام.. لم أكن قد اعتدت رصّ معدتي بهذا القدر من الإلحاح.. لعلها المرة الأولى في حياتي التي أتجاوز فيها حدود الإشباع فينتابني هذا الإحساس الذي ينطوي ـ كذلك ـ على شيء من القرف.

ولكنني ما لبثت أن قلت في نفسي: إن هي إلّا ساعات قلائل وتعتصر المعدة كل هذا الخزين لكي تبدأ مطالبتها من جديد، وحينذاك سأستعيد كرة أخرى القدرة على الردّ والاستمتاع بالطيبات، ومُحاولة ارتشافها حتى الثمالة، ولسوف يتكرر هذا يوماً بعد يوم.. ووجبة بعد أخرى.

وفي يوم ما يممت وجهي صوب فندق (نينوى أوبروي) قائلاً:

ـ لقد آن الأوان لكي أقتحم هذا الحصن الشامخ ذا النجوم الخمسة.. وأتناول عشائي في مطعمه الأنيق ذي الوجبات التي تخطف الأبصار.

وسمعت وأنا أهمّ بالجلوس، أحد الزبائن وهو يقول لعامل المطعم:

ـ شاتوبريان!

وتجاوزاً للتردّد والحياء، ورغبة في تناول أكثر الصنوف جدّة وغرابة، وربما أعلاها ثمناً، قلت أنا الآخر:

ـ شاتوبريان.

بعد دقائق جاءني بالمقبلات وأعقبها بالطبق إياه.. حاولت أن اكتفي بهذا وأن أكفّ عن الإلحاح الذي كان يقودني دائماً إلى التخمة والقرف وضياع الإحساس بطعم الأشياء، ولكنني ما لبثت أن تراجعت في اللحظة الأخيرة وأنا أتذكر سنوات الجوع والحرمان، وقلت للعامل قبل أن يهمّ بمغادرة المكان:

ـ سمك.. هل عندكم سمك؟

ـ بكل تأكيد

ـ ائتني بطبق منه!

التهمت الموجود كالعادة وغادرت المكان.. لم تمض سوى دقائق معدودات حتى أحسست بألم لا يطاق يشتعل في فم المعدة، لم أكن قد ذقت مثيلاً له من قبل، وترددت بين أن أستقل سيارة أجرة إلى الشقة، أو أن أعود إلى الفندق لكي أرتاح قليلاً في صالته، ولكنني آثرت الأولى. وما أن دخلت الشقة حتى رميت بنفسي على السرير وأنا أتقلب كالسمكة التي أخرجت من الماء.. مؤملاً في لحظة واحدة يكفّ فيها الوجع ويدعني أنام قليلاً.. لم يكن بمقدوري مغادرة المكان بحثاً عن طبيب، واضطررت لقضاء واحدة من أبشع الليالي في حياتي، لم أتمكن خلال ساعاتها الطويلة من الحصول على دقيقة واحدة من النوم.

وفي اليوم التالي وجدتني أهرع إلى عيادة أحد الأطباء وأنا أدعك معدتي بعنف لعلّي أُسكت وجعها الذي لا يطاق. وقال لي الطبيب بعد أن فحصني جيداً:

ـ التهاب حادّ في المعدة.. لعلّك تناولت طعاماً عتيقاً، أو أسرفت في وجبة العشاء؟

استحييت أن أصارحه بالحقيقة فآثرت الصمت، وغادرت العيادة وبصحبتي قائمة من الأدوية والمسكنات. وما هي إلّا أيام قلائل حتى استرجعت عافيتي، ومع العافية شهية مضاعفة للطعام، وإحساس بالقلق من أن تخذلني معدّتي في ملحمة الثأر التي آثرت الاستمرار فيها حتى النهاية!

وبدأت رحلة التجوال في المطاعم كرة أخرى.. وبدأت معها رحلة العذاب مع آلام المعدة والأمعاء وزيارة الأطباء وتناول وجبات الأدوية والمسكنات، والاعتكاف في الشقة لفترات قد تقصر.. وقد تطول..

وكأن إصراراً شيطانياً كان يسوقني إلى الاستجابة للتحدي في أعقاب كل تماثل للشفاء.. ولم أتعلم من التجربة، ولم أقل لنفسي أنني أمارس نوعاً من الانتحار.. وأنّ عليَّ أن أتريّث قليلاً.. أو أن أتوقف لحظات لأعيد النظر في طريقة تعاملي مع الحياة، ومع الثروة التي فاجأتني بحجمها الأسطوري.. ولم يخطر على بالي لحظة واحدة أن هناك مطالب ومجالات قد لا تقل أهمية يمكن الإفادة من المال فيها: الزواج مثلاً، أو الانتقال إلى بيت أكثر ملائمة، أو شراء سيارة

تعينني على التنقل والتجوال. . أو ـ ربما ـ توظيف جانب من المال في عمل ما قد يدرّ عليّ ربحاً ثابتاً. .

كنت قد ألجأت نفسي إلى كسل من نوع غريب، خارج نطاق كل التحليلات والقناعات العقلية والواقعية، وسيطر علي تماماً الإحساس إياه بضرورة الردّ على الحرمان بالإشباع، بحيث أصبحت وجبة الغداء أو العشاء هدفاً بحدّ ذاته، يملك قدرة سحرية على الإغواء الذي كان يدفعني إلى رفض وصايا الأطباء وتحذيراتهم، والسخرية منها، والإيغال أكثر فأكثر في تناول الوجبات الدسمة التي كانت، من حيث لم أكن أدري تماماً، تفترس صحّتي كالسرطان.

ويوما بعد يوم راحت عملية التآكل المحتوم في قدراتي الجسدية تزداد عنفاً وشراسةً. . وبدأت أخسر مواقع أخرى على خارطة الجسد الذي تجاوز حدوده المباحة. . فأشكو حيناً من تهيجات القولون، وحيناً من صرخات المرارة، وحيناً ثالثاً من التهابات الأمعاء، فضلاً عن أن أضراسي أصابها الإعياء وأخذت تتعرض للتلف وتفقد القدرة على ممارسة وظيفتها المعتادة.

ووجدتني ـ أخيراً ـ قبالة الأمر الواقع. . فإلى عهد قريب كنت أملك بقايا قدرة على المقاومة والصمود تدفعني إلى تحدّي نصائح الأطباء، والاستمرار في محاولة إطفاء شهية للإشباع لا تعرف ارتواء.

وفجأة وجدت نفسي في دائرة السوء التي كنت أخشاها. . أن أمتنع مرغماً عن تناول الطعام. . وأن أكتفي بالحدّ الأدنى الذي لا يتجاوز الخبز المحترق واللبن والحساء وعصير البرتقال. . وإلّا فإنه الدمار المحقق. .

وقلت في نفسي وأنا استعيد عبر دوامات الأوجاع التي لا تنتهي، رحلة الصعود والانكسار السريع:

ـ أتراه الحسد الذي حاصرني منذ لحظة انتشار نبأ حصولي على الجائزة؟.. أم أن ردود أفعالي الخاطئة في التعامل مع الهبة هي التي ساقتني إلى الهلاك؟.. أم لعلّها سنوات الحرمان الموغلة التي انتهت على حين غفلة عند الهامش الضيّق الذي لم يكن بمقدوره استيعاب الفرصة والتعويض عما فات؟.. أو ـ ربما ـ غياب الرؤية البصيرة في التعامل الأكثر دقة وعدلاً مع المال لتلبية المطالب كافة دون جنوح أو إسراف؟.. فليست شهوة الطعام وإطفاء نارها سوى نقطة واحدة في خارطة كبيرة معقدة تنبض بمئات النداءات والرغبات!

لعلّه هذا كله.. ولعلّ هبوط هذا المال "الحرام" علي دفعة واحدة أفقدني التوازن، ودفعني ـ دونما أي قدر من الإرادة والتبصّر ـ إلى الهلاك المحتوم.

أغلب الظن أنه كذلك. وأن المال الذي لا يجيء به الكدح الحلال، وعرق الجبين النظيف؛ يحرق ويحترق في الوقت نفسه.

ورحت أردّد في نفسي، وأنا أُحمَل في سيارة إسعاف جاءت لكي تقلّني إلى العيادة الخارجية في المستشفى الجمهوري لإجراء عملية مستعجلة لاستئصال الزائدة الدودية:

ـ ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه؟!

جماد

كثيراً ما تساءلت مع نفسي: هل للأسماء التي يختارها الآباء لأبنائهم تأثير ما على سلوك الأبناء؟ نوع من الضغط على الجملة العصبية، وربما الهاجس القهري الذي يظل يلحّ على المرء حتى يسوقه لاتخاذ ردّ فعل قد لا يكون مبرّراً تجاه الوقائع والأحداث؟

وذات يوم شهد أحد عنابر سجن الموصل القريب من دارنا في محلّة الغزلاني، حادثاً فريداً من نوعه ومترعاً بالعنف والضراوة.. أتراه قدّم الجواب عن السؤال الملحّ؟!

تلقيت النبأ بشكل مهوّش وبقدر من اللا أبالية.. فثمة حوادث لا يحصيها عدٌّ شهدها سجن الموصل، وثمة جرائم فردية وجماعية نفذت في عنابره وأروقته وساحاته، بحيث أصبحت أمراً مألوفاً لا يثير الدهشة ولا حتى التساؤل..

لكن شيئاً ما سرعان ما جذب انتباهي.. ودفعني إلى أن أتابع تفاصيل الحدث بقدر كبير من الاهتمام.. لقد كان اسم الرجل الذي نفّذ المذبحة المروّعة: جماد!

ووجدتني فجأة قبالة الحالة التي طالما تساءلت عنها.. وها هو ذا الجواب ... فالذي فعله هذا الرجل مع حشد من السجناء في العنبر الذي اعتقل فيه لم يفعله أحد من قبل، وربما لن يفعله أحد أبداً..

لقد تخاصم معهم مرة ومرتين وثلاثاً عبر إقامته الطويلة معهم. . كانوا جميعاً ينتمون إلى عشيرة كردية تقطن قريباً من الموصل، ويبدو أن اعتقالهم كان ذا دوافع سياسية. . أما هو نفسه فقد كان عربياً ينتمي لإحدى العشائر التي استقرّت في الموصل منذ بدايات القرن.

وكان طبيعياً أن يثور الجدل بينه وبينهم، فلعلّه كان يشعر بالعزلة إزاءهم، ولعلّ إحساسه المتضخّم بقوته الخارقة وقدراته الجسدية المتميزة؛ حفر خندقاً من الكراهية والعداء بينه وبينهم، وجعله يتحفّز لردّ كاسح يمنح المعادلة العددية الجانحة لغير صالحه؛ توازنها المفقود.

وكانت الكلمات المتبادلة التي تصل حدّ الشتائم واستخدام الألفاظ السوقية المبتذلة والمترعة بالبذاءة؛ هي الحكم الفصل في كل جولة شجار بينه وبينهم. . وكان ـ حتى في هذه ـ يملك القدرة على اكتساح خصومه وتضييق الخناق عليهم وإرغامهم على الصمت.

هذه المرة لم يكن الصراع على مستوى الكلمات، فسرعان ما تجاوز حدوده المعتادة، لكي يتحوّل إلى تلويح بالأيدي وإيماءات مكشوفة باستخدام العنف.

هو من جهته، مدفوعاً بغريزة الدفاع عن الذات، وتجاوزاً لأية بادرة ضعف قد تقوده إلى الانكسار، هدّدهم بأنه ليس من مصلحتهم أن ينقلوا المعركة خارج دائرة الكلمات، وأن بمقدوره، إذا اقتضى الأمر، أن يوقفهم عند حدّهم، وأن يلقّنهم درساً قاسياً.

كانوا ستة عشر رجلاً، ولم يكن (جماد) قادراً بأي معيار من المعايير على مجابهتهم مجتمعَين. . لكنّ إحساسه المتضخم بقدراته. .

ماضيه المليء بالانتصار على الخصوم وإذلالهم، خيّل إليه أن بمقدوره هذه المرة أيضاً أن يصنع المعجزة.. ويخرج من معركة التحدي الصعب منتصراً، لكي ما يلبث الحدث الفذ أن يغادر جدران السجن وينتشر بين الناس.. حينذاك ستكون إطالة مدة اعتقاله، وفق التعليمات المتبعة، فرصة لتحقيق المزيد من الإنجازات!

لكنه ما أن استجمع قدراته الجسدية، وتحفّز للرد، حتى التمّ عليه أبناء العشيرة إياها وأشبعوه ضرباً وركلاً.. وسرعان ما وجد نفسه، رغم طول قامته، أشبه بطفل صغير تتقاذفه أقدام اللاعبين الكبار.

ـ لكم الويل..

صرخ بما تبقى له من قوّة، وهو يتخبط في بقعة من الدم المتفجّر من أنفه وفمه وجانب من ذراعه الأيسر..

لم يأبهوا له.. وتراجعوا بهدوء كل إلى فراشه الذي لم يعد تمييزه عن أرض العنبر الرمادية ممكناً، وراح كل منهم يعبئ لفافة تبغ من الكيس المعلّق بحزامه.. ويرتشفها بتلذّذ وهدوء.. وهو يسحب نفساً عميقاً بسبب الجهد الذي بذله!

ونهض (جماد) قائماً وقد سقطت كوفيته من على رأسه، وانحلّ حزامه، فبدا سرواله الملطّخ بالدم والتراب من شقّ ثوبه المفتوح، وصرخ مرة أخرى بصوت مبحوح:

ـ لكم الويل!

نظر إليه بعضهم بلا أبالية ولم يكلفوا أنفسهم حتى عناء السخرية أو التشفّي أو الابتسام.. كانوا منغمرين حتى شحمة أذنيهم بلذة

الانتصار عليه.. وبرائحة التبغ التي أخذت تعيد إليهم روعهم شيئاً فشيئاً..

وأجال (جماد) نظراته المترعة بالحقد والغيظ فيهم جميعاً، وقال وهو يعيد شدّ حزامه على بطنه:

ـ ليست هي الجولة الأخيرة على أية حال..

بسبب من لا أباليتهم، وارتياحهم، لم يكلفوا أنفسهم عناء الردّ عليه.. وواصل (جماد) وهو يصرّ على أسنانه.. ويتراجع باتجاه فراشه الممزّق:

ـ سترون!

كان يتمنى أن يردّوا عليه، ولو بكلمة، وحينذاك كان يمكن أن يستعيد شيئاً من حيثيته الضائعة.. من خلال صراع الكلمات التي طالما صال في ساحاتها وجال.. ولكنهم لم يفعلوا، فازداد غيظاً..

ـ جماد ليس من النوع الذي يهزم بسهولة..

قال وهو يضغط على ضرسه الأيمن حيث لا يزال الدم ينبجس بين لحظة وأخرى.. وكرّر للمرة الثالثة:

ـ ولكم الويل من (جماد)..

دخل شرطيان وعريف متسائلين عن هذه الضجّة المفتعلة.. وقال لهم (جماد) بأخلاقية فارس من العصور الغابرة:

ـ كنا نمزح!

فلما رأى الدهشة في وجوههم أردف موضحاً:

ـ يضرب بعضنا بعضاً بالوسائد. . إنها لعبتنا المفضلة. . اللعنة على الملل إنه داء السجن الوحيد!

غادر العريف والشرطيان العنبر دون أن ينبسا ببنت شفة. . رغم أنهم لحظوا بوضوح بقع الدم منتشرة وسط العنبر. . إنهم يعرفون (جماد) جيداً، وهم يتحاشونه بأي ثمن حتى ولو اضطرهم الأمر إلى تمرير كذبه المكشوف.

قبل أن يحلّ الليل كان (جماد) قد عقد نيتّه على تصفية الحساب، ورتب في ذهنه الخطة التي تمكّنه من الثأر لكرامته، واستعادة مجده المستباح، مهما تكن النتائج المترتبة عليها. . المهم أن يقودهم إلى الدمار!

يومها ناموا مبكرين، حتى قبل أن يتناولوا عشاءهم، لقد أعياهم الصراع وأسكرتهم نشوة النصر ورشفات التبغ اللذيذ، فاستسلموا للنوم. . لكن (جماد) ظل مستيقظاً يجيل عينيه في أطراف المكان. . كان يبحث عن الموقد الذي يعدّون عليه الشاي. .

نهض من مكانه بهدوء واتجه أولاً إلى بوابة العنبر فتأكد من إحكام رتاجها من قبل الحرّاس. وقال في نفسه: لن يكون أمامهم أية وسيلة للإفلات من القصاص، ولسوف أراهم بأم عيني وهم يعانون من القهر ويتقلبون في العذاب قبل أن تخرج أرواحهم من حلوقهم. .

وما لبث أن تراجع عن الباب بعد أن ألصق أذنه بحديده الصدئ وأصاخ السمع وهو يقول: ليس ثمة أحد. .

تراجع قليلاً باتجاه زاوية العنبر حيث ينتصب الموقد العتيق المغطى بالسخام الأسود. . رفعه قليلاً وهو يرجّه بهدوء ليتأكد من

وجود بقايا (الكاز) في خزانه الصغير.. وأسفر وجهه عن ابتسامة عريضة بدت من خلالها أسنانه المهشمة من أثر اللكمات.. وقال: يبدو أن كل شيء على ما يرام.. ولسوف يرون كيف يردّ (جماد) الصاع بعشرين صاعاً!

فتح سدّاد الموقد.. وراح يصب (الكاز) بهدوء على فرش النائمين، محاذراً ما وسعه الجهد أن تصدر عنه حركة أو نأمة قد توقظ أحدهم، وربما تحبط خطته برمّتها.. لكنّ أحداً منهم لم يستيقظ..

- هذا فأل حسن يا جماد.. فإنهم مجهدون حتى النخاع..

عندما أتمّ رش (الكاز) على الفرش جميعاً مدّ يده إلى عود الثقاب وأشعله.. انحنى قليلاً عند أقرب فراش، وقبل أن يمسّه بالنار قال في نفسه وهو يحسّ بارتياح عميق:

- ليس قبل أن ارتشف لفافتي أنا الآخر.. لقد كاد الملاعين ينسونني إياها..

راح يدخن ببطء وتلذّذ ويسحب نفساً عميقاً، ثم ما يلبث أن يزفر الدخان بهدوء.. فتتماوج رشقاته الفضية في الظلام قبالة عينيه تماماً.. وكان (جماد) يحلم بالانتصار على خصومه واستعادة مجده الضائع، لكن هاجساً ما سرعان ما جعله يسرع في تناول الرشفات الأخيرة من اللفافة، ثم ما يلبث أن يرمي بعقبها بعيداً، ويشعل عود الثقاب مرة أخرى..

خلال دقيقة أو دقيقتين كانت النار تشبّ في الفرش جميعاً، والدخان يدوّم في فضاء العنبر أسود فاحماً، مترعاً بالشوائب والروائح الحادّة.. وراح أفراد العشيرة يستيقظون الواحد تلو الآخر، ينظرون

بدهشة إلى النار والدخان وهم بين النوم واليقظة، لكن نوبات السعال الحادّ وضراوة الحرارة، والإحساس بالاختناق؛ كانت ترغمهم على أن يطردوا بقايا النوم من أعينهم وينهضوا قائمين وهم يتساءلون: ما هذا؟

وصاح أحدهم:

- موقد الشاي..

بينما هرع آخر إلى المكان محاولاً أن يتلمّس الموقد، لكنه رآه مطفأ.. وفي نوبة سعال صرخ برفاقه:

- دقوا على الباب لكي يفتحوه.. لسوف نحترق جميعاً.. اكسروه إذا اقتضى الأمر.. ليس ثمة وسيلة للخلاص إلا بإيجاد فتحة في الباب..

رمى الرجال الستة عشر بما تبقى لديهم من طاقة أنفسهم صوب الباب.. وراح بعضهم يقرع عليه بعنف طالباً النجدة.. بينما كان الآخرون يضربون بقبضات أيديهم محاولين خلخلته، أو فتح ثغرة فيه.. بعد أن يئسوا من استجابة الحرّاس، الذين يبدو أن أحداً منهم لم يكن يخمّن ما الذي يحدث داخل العنبر، وأن المسألة لا تعدو أن تكون ضجّة مما يثيرها السجناء بين الحين والحين تعبيراً عن غضبهم المكبوت..

في صباح اليوم التالي فُتح الباب.. ودخل شرطيان يحملان طعام الإفطار: الخبز الأسود وشوربة العدس التي كان يحلو (لجماد) تسميتها بـ(شوربة الحصى) لكثرة ما فيها من حجارة مسحوقة..

فوجئ الشرطيان ببقايا الدخان المدوّم في فضاء العنبر.. وبالجثث المكدّسة عند الباب وقد تفحّمت تماماً..

وفي الزاوية البعيدة كان جسد (جماد) قد تفحم هو الآخر.. بينما كان وجهه سليماً.. تنتشر عليه بقع الدم المنساحة من حافات الفم، وتكسوه بشاشة الرضا والارتياح!

في اليوم التالي لسماعي النبأ هرعت إلى صديقي عبد الستار محمود مدير شعبة الأفراد في مديرية المنتجات النفطية.. حيث كان (جماد) يعمل حارساً ليلياً.

- حدّثني عن القاتل..

أراد أن يسرد مأساة العنبر بتفاصيلها فقاطعته بإشارة من يدي:

- حدثني عن القاتل وليس عن الجريمة.. لقد أصبحت تفاصيلها معروفة تماماً..

- لم تكن لي علاقة ما به.. مجرد حارس ليلي.. لا صلة له بأمور الشعبة على الإطلاق، ولكنني سمعت ممن يعرفونه جيداً.. أنه كان شرساً.. لم يسلم أحد من لسانه أو يده، وأنه لم يكن يهزم بسهولة.

- وماذا عن سبب اعتقاله؟

أجاب وهو يمدّ شفتيه بازدراء:

- القتل طبعاً.. لقد كان بالنسبة إليه أمراً اعتيادياً، أشبه بتناول وجبة غداء..

- وهل هذه هي أوّل مرة يعتقل فيها؟

ضحك حتى استلقى على قفاه وهو يقول:

- يبدو أنك لا تعرف (جماد) جيداً.. هذه هي المرة العاشرة التي يقتل فيها.. لقد أصبح قلبه كاسمه تماماً.. ترى هل يستحق أبوه الرحمة؟

- ليس لأبيه دخل في خروجه إلى الدنيا.. إنها إرادة الله!

- أعرف يا رجل.. أعرف.. ولكنه لم يحسن اختيار اسمه..

- ربما!!

وتذكرت وأنا أودّعه وأغادر المكان، حالة معاكسة تماماً.. أن يجيء اختيار الاسم للأبناء تعبيراً عن وضع عقلي، أو نفسي، يتلبّس به الأب ويتلقى تأثيراته باستمرار.. ولله في خلقه شؤون..





الأشباح

لست أدري ما الذي دفعني إلى البقاء في تلك الأمسية الملعونة مع حشد من الأصدقاء الذين استهوتهم لعبة تحضير الأرواح.. فأوغلوا في عالمها المجهول..

كان عليّ وقد عدت من سفر بعيد أن اكتفي بالجلوس معهم قليلاً، ثم أُغادرهم معتذراً.. بسبب من إعيائي وحاجتي الملحّة للنوم، ولا أعتقد بأنهم سيلحّون عليّ وهم يلحظونني جيداً.. إنساناً أحالته الرحلة الطويلة إلى ركام.. لكنه سوء تقديري للعواقب، وربما رغبتي التي كانت تطلّ على استحياء بين الحين والحين، تحثني على أن أتعرّف على عالمهم المخبوء الذي يتحدثون عنه بدهشة وإعجاب.. أن أضع خطواتي عند عتباته الأولى فقط لاكتشاف مصداقية ما كانوا يصدّعون به رأسي بين الحين والحين.

على أية حال كان عليّ أن أتحمل عاقبة خطئي، وأن أشهد واحدة من أسوأ الأمسيات في حياتي.. وكلما أوغل الليل وجدتني مشدوداً أكثر إلى البقاء، ليس عشقاً لاجتياز المجهول فحسب، ولكن بسبب من الخدر والاستسلام.. اللذين أحكما طوقهما علي.. وكأنني قد وقعت أسير حالة من التنويم المغناطيسي.. الذي تتراجع فيه الإرادة إلى نقطة الصفر وتفقد قدرتها على الأداء..

في البدء تبادلوا أحاديث اعتيادية تماماً مما يجري على سطح الحياة أو يقع في دائرة الحسّ المكشوف للعيان.. ثم ما لبثوا أن أخذوا يتبادلون الكرة السحرية ممتزجة بقدر من الرعب الذي تزيده ظلمات الليل، وغرابة الوقائع، تصعيداً، شيئاً فشيئاً، وهي تمضي بهم إلى حافات الهول الذي يثير الرعدة في الأوصال ويعقد الألسنة فلا تقدر حتى على الصراخ!!

لقد تحوّلوا بمرور الوقت إلى محترفين، وهم يعرفون جيداً فنون اللعبة الشيطانية التي يمارسونها فيمضون بها حتى حافاتها القصوى الموغلة في الظلمات..

تحدّث أحدهم عن العقاب الذي تلقّاه يوم أن سوّلت له نفسه بتحدّيهم، ثم ما لبث أن رجع إلى بيته لكي يجد النار تلتهم أثاثه، فما انطفأت حتى هرع إليهم متوسّلاً، معلناً عن ندمه العميق، فأرسلوا معه أحدهم لكي يقوم بإطفاء النار!

وحكى آخر كيف أنه رأى بأمّ عينيه فرشه ووسائده تتطاير في أعماق الليل من فوق السطح الذي تأوي إليه الأسرة في ليالي الصيف هروباً من الحرّ، وكيف أنها تكوّمت في فناء الدار، وأفراد أسرته ينظرون إليها وهم يرتجفون وقد عقد الخوف ألسنتهم!

نظرت إلى أحدهم فلحظته يشرد قليلاً، ثم ما يلبث وجهه أن يشحب، وفي لحظات كان قد اكتسى بصفرة الموت، وقال بصوت مرتجف مشيراً إلى مكان ما، قبالته تماماً:

ـ لقد مر من هنا..

فرد الآخر بعد أن زاغ بصره:

ـ ها هو ذا، عيناه الناريّتان تقدحان شرراً. . إنه يتوعدنا!

فأجاب الأول وقد انتابته رجفة كرجفة الحمى:

ـ كان علينا ألا نستدعيه. . إنها لعبة خطرة. .

وتساءل الآخر وهو يحدّق في نقطة ما لم أكد أتبيّنها:

ـ ترى هل ستمّر بسلام؟!

وجدت نفسي مرغماً على دخول دائرة الخوف، فها هم يتحدثون عما يعتقدون أنهم يرونه عياناً. ثم ما لبثوا أن راحوا يتبادلون الكرة بعنف. . كانت كل حركاتهم وايماءاتهم توحي، بما لا يقبل مجالاً للشك، أنهم ليسوا وحدهم في المكان وأن هناك آخرين معهم يرونهم رأي العين. .

وكالمستجير من الرمضاء بالنار، تمنيت أن لو أراهم أنا الآخر، فقط لأتأكد من أنهم قد جاؤوا بالفعل، وأنهم يملكون حضوراً مؤكداً. .

وما لبث الأصدقاء أن وقع اختيارهم على أحدهم ليكون وسيطاً روحياً. . موظف حسابات لم يكن قد تجاوز الدراسة الإعدادية. . كان يملك شفافية مذهلة في تكوينه السايتوبلازمي كما كانوا يقولون، وبالتالي كانت مهمته ممكنة، ورؤيته للأرواح لا يكاد يحجبها شيء.

أطفئت الأضواء كافة، وطلب من الجميع التزام الصمت المطبق إذا ما أريد للجلسة أن تمضي على خير!

وعلى مدى ساعتين أو ثلاث. . أحضروا العديد من الموتى فتحدثوا بلسان الوسيط. . حكى الجاحظ عن خطط بغداد، وابن عبد

ربه عن الأزياء الأندلسية، والظاهر بيبرس عن ذبح سيف الدين قطز. . وكانت الأرواح تدلّس ـ أحياناً ـ على الوسيط فتتداخل قبالته المرئيات وتختلط الأصوات، فينادي بصوت مبحوح وكأنه خارج من بئر عميق:

ـ أقسمت عليك باسم الله الأعظم، أيتها الروح الشرّيرة، أن تنسحبي وتخلي المكان للأخيار. .

كانوا يستجيبون له أحياناً، وأحياناً أخرى يركبهم العناد فيزيدونه عناءً وإرهاقاً. . وكنت ألحظ قطرات العرق تنتشر على جبهته. . ثم ما تلبث أن تأخذ طريقها إلى الأرض. .

ونادى أحدهم الوسيط وكأنه يعنيني:

ـ اطلب منهم أن يخططوا بعض الرسوم

ومضى آخر إلى جهاز التسجيل فضغط على زرّه وهو يقول:

ـ بعد ساعة أو ساعتين سنستعيد لحظة بلحظة أصواتهم الواضحة وعرضهم المثير.

ومضت يد الوسيط وهي ترتجف لكي تخط على صفحة بيضاء أعطيت له على عجل، خطوطاً لم أكد أتبين ما هي. . ونادى أحدهم طالباً رسم أبيه المتوفى منذ سنوات عديدة.

بعد دقائق فحسب سقطت الورقة من يد الوسيط، فتلقفتها الأيدي وراحت العيون تمعن النظر فيها بدهشة وإعجاب وقال ابن المتوفى:

ـ إنه هو. . سبحان الله!

تساءلت وقد فقدت الرغبة تماماً، حتى في إلقاء نظرة على الورقة

ـ من؟

أجاب بلهجة تنطوي على شيء من العتاب:

ـ أبي..

ثم ما لبث أن أردف وهو ينتزع الورقة ويضعها قبالتي:

ـ هاك.. انظر..

ونظرت.. كان الوسيط قد رسم ملامح غير واضحة تماماً لوجه بشري، حاولت جهدي، وقد كنت أعرف المتوفى جيداً، أن أجد شبهاً بينه وبين صورته التي بين يدي، فعجزت، لكنني لم أشأ أن أسكب إناءً من الماء البارد على مشاعرهم الملتهبة.. فاكتفيت بأن هززت رأسي بإعجاب!!

وقال ابن المتوفى بارتياح عميق:

ـ ألم أقل لك؟

سألتهم مستطلعاً:

ـ والفنجان؟

قال أحدهم وهو يمط شفتيه ازدراءً:

ـ إنها لعبة عتيقة وساذجة، وقد تجاوزناها منذ زمن بعيد.. إنها أشبه بلعبة الكلمات المتقاطعة وهي ليست ذات جدوى.. وها أنت ذا ترى، لقد انتقلنا إلى مرحلة الاستدعاء المباشر للأرواح، ثم مضينا قدماً باتجاه التجسيد..

ابتلع ريقه وأردف:

ـ إن الرسم الذي اطلعت عليه، والأصوات التي ستسمعها عما قريب، ستؤكد لك كم أننا أوغلنا في عالم الأرواح!

لم أجبه بشيء، وحاولت أن أحدّق في ساعتي وسط الظلام المطبق، فخّيل إليّ أنها قد تجاوزت الثانية، فقلت بحذر وتردّد:

ـ إنها الثانية.. وأرجو أن تأذنوا لي بالانصراف..

همس أحدهم بنبرة انزعاج:

ـ لا تفسد علينا الجلسة أرجوك.. هاهو ذا صوتك يلجئ الأرواح إلى الاختفاء كرة أخرى.. كان عليك أن تتسلّل خارجاً دون أن تتفوّه بكلمة..

وتسللت ـ بالفعل ـ مغادراً المكان، وكان آخر ما رأيته وأنا أفتح الباب قليلاً، فتدخل منه على حين غرّة حزمة من ضوء الشارع المجاور؛ كان وجه الوسيط وهو يتصبّب عرقاً، وجسمه وهو يرتجف بهدوء..

لفحني هواء الصيف المنعش، لكنني لم أكد استمتع به، فقد انتزعت نفسي من الغوص أكثر في تلك البئر العميقة، بسبب من الهاجس الذي تملّكني عبر تلك اللحظات: كيف سأجتاز الطريق المظلم وحدي في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ وكيف سيكون دخولي البيت الكبير الموحش، حيث لا أحد هناك سوى أمّي التي تدلف إلى الشيخوخة وهي تغطّ الآن في نوم عميق؟

كان عليّ أن أجتاز شبكة من الأزقّة الغارقة في الوحشة والظلام قبل أن أصل البيت.. وللحظات تمنيت أن أرجع إليهم كرة أخرى، فعلى ما في حلقتهم من رعب.. إلّا أنه أخف وطأة وأكثر رحمة من الوحدة التي تحيطني الآن، والتي سيزداد حصارها القاسي كلما أوغلت في الأزقة المنقطعة البعيدة في هذا الوقت المتأخّر من الليل..

وعلى حين غفلة مرق قريباً مني كائن أسود بلون القار.. دقّ الأرض بعنف وأحسست أن قلبي يخرج لكي يسقط في مكان بعيد. ولم أكد، بسبب من هول المفاجأة، أن أتبيّن ما هو، لكنني ما لبثت أن سمعت صوت أقدام تركض مسرعة في كل اتجاه عبر الأزقة كلها.. كان إيقاعها قاسياً.. وكانت كافية لأن تجمّد ما تبقى من دم في عروقي، وسمعت أحدهم يصرخ:

ـ اقبضوا عليه!

انعقد لساني، وأصابني شلل تام وأنا أرى، في دوّامة الظلمة والخوف، رجلاً ضخم الجثة يحمل ساطوراً تلتمع شفرته كالسيف، ويقترب مني، ثم ما يلبث أن يندفع بعيداً وهو يصرخ مشيراً إلى زقاق جانبي مسدود:

ـ من هنا.. اقبضوا عليه جيداً.. وإلّا..

تبيّن لي وأنا ارتجف كسعف النخيل في ليالي الشتاء، أن ثمة ثوراً هائماً قد أفلت من أيدي عصبة من القصّابين، وها هو الآن.. خواره اللعين يطرق سمعي.. فيردّني بعض الشيء إلى رشدي.

ومضيت بساقين لا تكادان تقويان على حملي حتى البيت.. كانت مشكلتي الأكثر صعوبة ومعاناة هي اجتياز الفناء الداخلي الواسع المظلم، من أقصاه إلى أقصاه، قبل أن أصل إلى زر المصباح لإشعاله.. لم يكن ثمة من آوي إليه هناك وأتقوّى به، قلت في نفسي.. ليس هناك سوى أمي التي تدلف إلى الشيخوخة وهي الآن في السطح البعيد تغطّ في نومها..

وتذكرت للحظات الوسائد المتطايرة الملقاة من السطح في أعماق الليل، والنار التي راحت تأكل الأثاث بهدوء، وقلت في نفسي وأنا

اقترب بوجل وإشفاق من الزقاق الأخير المفضي إلى البيت: ماذا لو جوبهت وأنا أدلف إلى الفناء بالعقاب نفسه.. لقد تحدّيتهم أنا الآخر!

كنت أقدّم رجلاً ولكني لا أوخر اثنتين، لأن التراجع ثانية باتجاه الزقاق لن يخرجني من دائرة الرعب التي أحكمتْ حصارها.. وقلت: ليس ثمة أمرّ ولا أقسى من الرعب.. لقد ذقت المرارات كلها فلم أجد ألعن منه على الإطلاق..

وبيد مرتجفة.. وضعت المفتاح الكبير في الباب الضيّق ودفعته بهدوء.. راح يئز وأصواته تنغرز في جملتي العصبية كالسكاكين الحادة.. اللعنة على الوحدة إنها سبب كل بلاء.

اجتزت القنطرة التي تكاد ظلمتها اللزجة تُمسك وتُشمّ وأنا أسمع دقّات قلبي ترتفع حتى تصمّ أذني، وأحسّ بقلبي نفسه يغادر موضعه ويصعد قليلاً باتجاه حنجرتي فيسدّ الطريق على الهواء.. ثمة حالة من الاختناق المبهظ تجعلني أكافح لالتقاط الأنفاس دون جدوى..

وأنا اجتاز الفناء، وكأني أقطع رحلة الألف ميل.. كان طرفه الآخر يبدو بعيداً.. بعيداً جداً، وكانت ساقاي مثقلتين بأحمال الرصاص، ومن أجل إيهام نفسي رحت أمدّ ذراعي الأيمن متلمساً الجدار المقابل لعلّي أعثر على الزر لكي أضغط عليه، ولكن عبثاً..

ولست أدري ما الذي جعلني ألتفت إلى الشمال قليلاً، صوب الزاوية القصوى من الفناء، فعلى حين غفلة فوجئت بكائن ذي جسم مترهّل ورأس مفلطح، يتدثّر بعباءة سوداء، يقبع هناك وهو ينظر إليّ بعينين شبه مغمضتين.. كأنه كان في انتظاري.. وهاهو ذا يتحفّز للنهوض، لكي يقطع المسافة المتبقية بيننا..

وقفت في منتصف الفناء وأنا أترنّح محاولاً جهدي ألّا أسقط أرضاً قبالة هذا الذي يحدّق فيّ ويتحفّز للنهوض.. ثم ما لبثت أن صرخت بما تبقى فيّ من قدرة أخذت تتلاشى وتغيب. وسمعت.. وأنا أكافح في مجابهة الخوف والمجهول، وربما الذبح أو الخنق اللذين أصبحا قاب قوسين أو أدنى.. صوتاً من مكان ما، لم أتبيّنه للوهلة الأولى، ولكنه ما لبث أن أعاد النداء:

ـ ما بك يا بني؟! ها أنا ذا قادمة إليك..

رفعت رأسي بصعوبة بالغة إلى فوق وكأنني أقاوم ثقل مئات من الأرطال تضغط على رأسي وكتفي، فرأيت عبر دوّامة الضباب والظلمة، واختلاط المرئيات، رأيت أمّي وهي تطل عليّ من جدار السطح، ثم ما يلبث وقع خطواتها على السلّم أن يردّ إليّ شيئاً من اطمئناني المفقود..

هاهي ذي قادمة.. قلت في نفسي، ثم ما لبثت أن وجدت قدراً من الجرأة للتقدم أكثر صوب الجدار، والعثور على الزر والضغط عليه..

تدفّق النور في أطراف الفناء، وانتهزت الفرصة فألقيت بطرف عيني نظرة خاطفة على الكائن الذي يقبع في الزاوية ويتحفّز للنهوض.. ولدهشتي فوجئت بأنه لم يكن سوى غرارة من القمح كانت قد وضعت هناك، وألقيت عليها ـ عن غير قصد ـ عباءة سوداء!

ألقيت رأسي على صدر أمي وأنا أستردّ روعي.. وللحظات أحسست بقلبي ينزلق ثانية لكي يستقر في مكانه، وأنفاسي وهي تلتهم الهواء النقي بشراهة، وتطرد الدخان اللعين، ثم ما لبث أن غمرني إحساس جارف بالأمان.. إحساس مترع بالطمأنينة والعذوبة والحنان..

الخدعة

أوغلت كثيراً في خبايا الجسد البشري وتكوينه المدهش. . كنت أجده قبالتي حياً أو ميتاً، أو على صفحات المجلات الطبية والمقررات المنهجية والمراجع الكبرى في العالم. . أو في صالات التدريس وقاعات المحاضرات والندوات.

كل يوم أكتشف أو أقرأ أو أعاين أو أسمع جديداً. . معجزة الجسد البشري لا تنقضي عجائبها. . إنها إحدى إبداعيات الله سبحانه في خلقه، بل هي ـ ربما ـ قمّتها التي لا تضاهى.

ومنذ كنت طالباً في كلية طب الموصل في منتصف الستينيات وقفت مندهشاً إزاء المعجزة. . وكنت أردّد دائماً بيني وبين نفسي: إن الطبيب بالذات يجب أن يكون مؤمناً من طراز أوّل، وإنه أكثر حظاً من الآخرين؛ إذ وضعته رغبته في التخصص إزاء صنع الله سبحانه، وإن الذين لا تقودهم الظاهرة البشرية إلى الله ليسوا بشراً!

وبمرور الوقت أخذت رغبتي تزداد حدّة في الإيغال عبر دروب الجسد وحناياه، وتدفعني أكثر فأكثر إلى اختزال الزمن واكتشاف الظواهر أو إدراكها. . وبدا واضحاً أنني سأتفوق في دراستي فيما أصاب أساتذتي الدهشة والإعجاب.

وتخرجت من الكلية على رأس دورتي بمعدل ثلاث وتسعين بالمائة، وهو ما لم يحظ به أحد من خريجي الكلية أو حتى غيرها من

كليات الطب في العراق. وقال أحد أساتذتي وكان يراني أحرص دائماً على صلاة الجماعة في مسجد الكلية:

ـ هذه يا دكتور «وليد» إحدى ثمرات الإيمان.. إن الله سبحانه يمنح خير الدنيا والآخرة لمن يمحضه الطاعة والمحبة..

كنت يومها خجولاً فانعقد لساني، ولم أستطع حتى أن أشكره على ملاحظته.

ولم أنتظر طويلاً.. فغادرت العراق في خريف السنة نفسها إلى أدنبره في المملكة المتحدة.. منتهزاً فرصة حصولي على زمالة مؤسسة كولبنكيان، ولم يطل مقامي هناك فما هي إلّا سنوات ثلاث حتى حصلت على البورد في الطب الباطني وجراحة المفاصل بتفوّق، وسجلت عضويتي في عدد من الجمعيات الطبية ثم قفلت عائداً إلى بلدي..

بعد ربع قرن من التدريس في الجامعة وممارسة المهنة في العيادة التي كانت تعجّ بالمراجعين كل مساء، قدّر لي أن أدخل اختباراً صعباً يتميز بالغرابة، وأن أخفق فيه إخفاقاً ذريعاً لا يتناسب أبداً مع شهرتي وتفوقي كطبيب اختصاصي وأستاذ جامعي يشار إليه بالبنان.. ولله في خلقه شؤون!!

في ساعة متأخرة من الليل دقّ جرس الهاتف.. كنت غارقاً في النوم فجاءتني ضرباته وكأنها تصدر من مكان بعيد.. لكن إلحاحه أرغمني على الاستيقاظ.. لم أكترث له، فأنا قد تعوّدت نداءات الليل منذ زمن بعيد.. مرضى يعانون من الوجع الذي يتجاوز حدود الاحتمال فيدفعهم إلى الصراخ، ويجد المحيطون بهم من الأهل

والولد أن السكوت على المريض وهو يتلوى ويعتصر تحت قبضة الألم؛ أمر لا يطاق، وأن لا بد من استدعاء الطبيب بعد أن تخفق كل المسكنات في تخفيف المعاناة..

في السنين الأولى كنت أهرع لكل نداء، وكنت أقول في نفسي وأنا أغادر المنام وأتهيأ لاستبدال ملابسي وحمل حقيبتي لتدارك المريض: ليس لقَسَم أبقراط فحسب ولكنها قبل ذلك وبعده.. مسؤوليتنا إزاء الله سبحانه، ولا بدّ من الاستجابة للنداء وإعانة ذوي الحاجات حيثما تطلّب الأمر ذلك.

بمرور الوقت بدأت قبضتي ترتخي، وأصبحت أرغم نفسي على تجاوز بعض النداءات.. لعله التعب المتراكم عبر السنين.. لعله جهد النهار الطويل في المستشفى والكلية والعيادة مع طوابير المرضى والطلبة والمراجعين.. ثم إن للإنسان طاقةً محدودة لن يكون تجاوزها إلا نوعاً من الانتحار.. وحاشا لله..

كنت أمام ضغوط الواقع كمن يسعى لتبرير خطئه وإقناع نفسه ـ على الأقل ـ في أنه ليس من المحتوم على الطبيب أن يستجيب لكل النداءات وأن يلاحق كل الحالات، لأن ذلك فوق طاقته.. وإلّا فإنه سيعرّض نفسه للدمار.. وعند ذاك قد يخسره المرضى أنفسهم قبل أن يخسر هو نفسه!

وبمرور الوقت.. أصبح النوم أمنيتي الغالية.. هدفي العزيز.. الذي طالما حلمت بأن أنال نصيبي منه كاملاً.. ولكن ما الحيلة وجرس الهاتف حيناً، والباب حيناً آخر؛ يقطعان عليّ الساعات القليلة التي أخلو فيها إلى أمنيتي هذه، ويستلّاني من منامي بالإكراه؟!

سحبت الغطاء على رأسي محاولاً أن أضع بيني وبين جرس الهاتف فاصلاً، وأن أرجع إلى نومي العميق كرة أخرى، ولكن عبثاً.. إن أعصابي المتوفّزة لم تعد تسمح ـ بمجرد مغادرة النوم ولو للحظات ـ أن أعثر عليه ثانية بيسر وسهولة.. ووجدتني، بعد أن تقلّبت في المنام لدقائق، وبعد أن أصبح إلحاح الجرس أمراً لا يحتمل، وجدتني أنهض من فراشي وأتجه إليه..

رفعت السماعة وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي:

ـ ألو..

ـ الله يخليك يا دكتور.. اعذرني.. فلم يعد الأمر يحتمل لحظة أخرى من الانتظار..

قلت وأنا أتثاءب:

ـ ولكنها الساعة الثالثة من الليل.. ألا تعرف أنه وقت متأخر جداً، وأن من حقي أن أحظى بقسط من النوم لكي أستطيع متابعة أعباء النهار؟

محمّلاً باللهفة والتوسّل جاءني صوته وكأنه يستغيث:

ـ إنني أعرف ما أسببه لك من متاعب.. ولكن الضرورات تبيح المحظورات.. إنه يتلوّى من الوجع قبالتنا، ولم نعد نستطيع أن نفعل شيئاً.. إنه أبي يا دكتور ولم أعد أحتمل أن أجده تعساً إلى هذا الحد.. فاعذرني..

من بعيد، ومن وراء توسّلاته رشقتني صرخات المريض، والآهات المحملة بالشكوى، والألم الذي يتجاوز حدود الاحتمال واليأس،

والرغبة القاهرة في الخروج ولو قليلاً من دائرة البؤس البشري.. الآهات التي لم تفقد بعد ربع القرن من الحوار الصامت معها، عنفها وشراستها، وتوسّلها المحزن، وتشبثها بالمجهول.

سألته وأنا أحاول أن أحكم بالإعدام على آخر نداءات النوم والاسترخاء..

- المغص الكلوي.. أليس كذلك؟

أجاب بسرعة:

- يا ليت.. وإلّا كانت حقنة البسكوبان تغنيني عن إزعاجك في هذا الوقت المتأخر..

- ماذا إذن؟

- يبدو أنها حصى المرارة، وأن ثمة اختناقاً في قناة الصفراء، فهل آتيك بسيارتي يا دكتور؟

قبل أن أجيب أردف:

- إنني أعرف عنوانك جيداً.. وستجدني عندك بعد عشر دقائق.. إنّ خبرتك لا تخطئ وسيكون لك فضل إخراجه من دائرة العذاب.

- طيب.. إنني بانتظارك..

- شكراً جزيلاً يا دكتور.. شكراً جزيلاً!

ارتديت ملابسي، وتأكدت من موجودات حقيبتي ورحت أنتظر، وما هي إلا عشر دقائق حتى كان جرس الباب يدقّ..

من عجب أن أجد في ضوء المصباح الشاحب للباب الخارجي أن السيارة التي جاءت تقلّني محملة بأكثر من شخص. .

لم أدهش لذلك، إذ كثيراً ما صادفتني حالات كهذه. . اثنان أو ثلاثة من أقرباء المريض يجيئون لاصطحابي. . إنه نوع من التقدير في الغالب. .

وقفز الرجل الذي يجلس خلف المقود لكي يصافحني بحرارة، وهو يقول، محاولاً أن يشكم ارتجاف صوته:

ـ لا أدري كيف أشكرك يا دكتور، وها أنت ذا ترى كيف جئت بإخوتي كلهم ولم أترك سوى أحدهم هناك بعد أن أصرّوا على اصطحابك. . إن موافقتك لا تقدّر بثمن. . وهذا أقل ما نستطيع للردّ على كرمك!

قلت وأنا أمعن النظر في سيارة «الباسات» لكي أجد فيما إذا كان هناك مكان لي أنا الآخر. . وعاجلني الرجل وهو يعاني من الارتباك:

ـ لا أدري إن كان يليق بك أن تجلس في سيارة متواضعة كهذه!

حاولت أن أداري ارتباكه فقلت:

ـ لا بأس، فالمهم أن نلحق بالمريض في أسرع وقت.

أجاب وهو ينقّل نظره بين السيارة المتواضعة المترعة بالكدمات وبيني:

ـ ولكن. .

بدأ نفاد الصبر يتسرب إليّ، فسألته وأنا أنظر متعمداً إلى ساعتي:

ـ ما الذي تقترحه؟

أجاب بارتباك مشوب بالخجل والاعتذار:

ـ إذا كان بالإمكان أن تأتي بسيارتك، وإذا شئتَ تولّيتُ أنا إخراجها من الكراج وقيادتها إلى البيت.. إنني أقدر كم أنك متعَب يا دكتور.. و..

ووجدتني مرة أخرى أمام الأمر الواقع.. فقاطعته:

ـ لا بأس.. سأتولى أنا إخراجها وقيادتها..

قال وملامح الغبطة والارتياح تكسو وجهه:

ـ إذن سأجلس إلى جوارك وستتابع السيارة الأخرى حتى البيت.

مضت الدقائق العشر ولم نصل البيت المقصود.. وانضاف إليها عشر دقائق أخرى.

وبدأت أتساءل، والقلق يحاصرني شيئاً فشيئاً، فيما إذا كان هناك شيء ما.. وقلت في نفسي: إذا كانوا قد وصلوا داري خلال عشر دقائق؛ فلماذا هذا الوقت المضاعف ونحن نجتاز المسافة نفسها؟

قبل أن أقنع نفسي بالجواب كانت «الباسات» قد توقفت عند منعطف طريق يغصّ بالأسواق المقفلة، حيث لا أحد على الإطلاق فاضطررت للتوقف بدوري للحظات، كما لو كنت في حلم، وجدت الرجل الذي يجلس إلى جواري يرفع مسدسه قبالتي، وثلاثة أشخاص أو أربعة يغادرون «الباسات» لكي يحيطوا بسيارتي وقال الرجل:

ـ آسف يا دكتور، فإن عليك أن تسلمنا سيارتك!.

رمقته بنظرة مترعة بالدهشة والتساؤل والخوف واللوم والاحتقار.. فأردف وهو يهزّ المسدس قريباً من صدغي:

ـ ليس لدينا وقت كافٍ.. والأفضل أن تنفّذ المطلوب.. وإلا كانت خسارتك أكبر بكثير..

صرخت على غير إرادة مني:

ـ ماذا؟

ـ لا مبرر للجدل، والمسألة واضحة تماماً.. تسلّم سيارتك وترجع إلى دارك سالماً غانماً..

ـ ولكن!.

ـ معذرة فليس ثمة أي مجال لإطالة الحديث.

أردت أن أقول له ولأصحابه المحيطين بالسيارة وكأنهم في حالة استنفار: أهذا جزاء استجابتي للرجاء في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ولكنني تذكرت أن المسالة برمتها خارج نطاق القيم المتعارف عليها، وأنها خدعة رخيصة للسطو المسلح على سيارتي، فآثرت الصمت وأنا أترك المفتاح في مكانه من (السلف) وأغادر السيارة وسط موجة من الإحساس بالقهر المترع بالمرارة.. ولكن ما هو أشد مرارة.. ذلك الإحساس القاسي بأنني قد خدعت.. وأن السفلة قد تمكنوا مني..

بعد أن ابتعدت خطوات عدت ثانية وقد تذكرت شيئاً.. فتحفز الرجال كرة أخرى:

ـ ماذا؟

قال أحدهم..

فأشرت إلى المقعد الخلفي للسيارة وأنا أقول:

- حقيبتي..

ناولني إياها أحدهم بسرعة وهو يقذف بها إلي، وما أن أدرت لهم ظهري حتى سمعت الرجل الذي كان يجلس إلى جواري يتقدم نحوي محاولاً أن يكسو وجهه بابتسامة مصطنعة، وهو يهز مفتاح «الباسات» قبالتي تماماً..

أوجست في نفسي خيفة، ويبدو أنه لحظ ذلك فقال مطَمئناً:

- أبداً يا دكتور.. وإنما هو شيء من الوفاء نريد أن نرد لك به بعض دينك علينا..

لم أفهم ما قصد إليه، وأنا لا أزال أتخبط في حالة نفسية، كنت أجدني فيها بين اليقظة والحلم.. وأردف الرجل:

- لا يمكن، وقد استجبت لرجائنا مرتين في هذا الليل العميق، أن نجعلك ترجع إلى البيت مشياً على الأقدام..

قبل أن أساله، أشار إلى «الباسات».. وهو يمدّ يده لكي يسلّمني مفتاحها:

- هذه هديتنا المتواضعة لك، نرجو أن تتقبلها تعويضاً عن السوبركراون التي تنازلت عنها.. فليس في الإمكان أحسن مما كان.

قلت في نفسي وأنا أنظر إليها بازدراء: لا بأس، فهي ستضمن عودتي إلى البيت على الأقل.. ثم إني قد أجد فيها الدليل الوحيد للوصول إليهم.. ومن يدري فلعلّي استرجع سيارتي رغماً عنهم.

لم أعترض على كرم الرجل، إذ لا جدوى من ذلك على الإطلاق.. ومددت يدي متناولاً المفتاح، وقال الرجل غير مصدّق:

ـ شكراً جزيلاً على تواضعك.. ولن ننساها لك!

لم أجبه بكلمة واحدة وأنا أحمل نفسي إلى «الباسات» وأدير المفتاح وأمضي عائداً.. ولمحتهم وهم يتقافزون إلى السوبر لكي يمتطوها وينطلقوا إلى هدفهم، ولمحتهم أيضاً وهم يلوّحون لي بحرارة قبل مغادرة المكان!

عندما وصلت البيت فوجئت بسيارة النجدة السوداء وثلّة من رجال الشرطة تقف عند الباب، فقلت في نفسي: الحمد لله، هاهي ذي بداية الفرج.. لعلهم اكتشفوا المحاولة فجاؤوا لمعاونتي..

واستقبلني المعاون والدهشة تكسو ملامح وجهه، وقال دون أن يكلّف نفسه مدّ يده إلي ومصافحتي:

ـ أهلاً دكتور وليد..

قبل أن أرد عليه التحية، أردف بشيء من الارتباك:

ـ هل يمكن أن تفتح الصندوق الخلفي للسيارة؟

أجبته باطمئنان، دون أن أفطن إلى ما يمكن أن ينطوي عليه طلبه:

ـ بكل تأكيد.

واستدرت لكي أفتح الصندوق.. وفجأة وجدتني أتأرجح مرة أخرى، وبعنف أشد هذه المرة، بين اليقظة والحلم، وأنا أعاين، داخل الصندوق.. قبالتي تماماً.. جثة رجل مقتول!

ولمحت المعاون وهو يرمقني بنظرة مترعة بالدهشة والتساؤل.. وربما الازدراء، لا أدري، وصرخت على غير إرادة مني:

ـ ما هذا؟

قال المعاون وهو يحاول أن يتمالك أعصابه، ويشير إلى ثلاثة من رجال الشرطة الذين هُرعوا لإلقاء نظرة على الصندوق..

ـ كنت أتوقع أن المسالة مجرد وشاية رخيصة.. وأن لا أساس لها من الصحّة على الإطلاق!!

صرخت مرة أخرى وأنا أتأمّل القتيل:

ـ ولكن!

قاطعني المعاون وهو يربّت على كتفي.. وملامح الغضب والرضا تتناوب على وجهه الذي كانت تنعكس عليه أضواء سيارة النجدة المفتوحة على مداها..

ـ ليس الآن يا دكتور.. فلكل حادث حديث.. وتستطيع أن تقول ما عندك.. هناك في المركز.

وأردف وهو يشير إلى أحد رجاله ويهمّ بالتوجّه إلى سيارته:

ـ إذا لم يكن بمقدورك أن تقود السيارة فسيقودها العريف..

شردت قليلاً. . لعلها محاولة غير واعية للخروج لحظات من دائرة التعاسة التي وجدتني أغوص في بئرها حتى القرار. . ثلاثون سنة وأنا أُعمل عيني فيما وراء الظواهر والأشياء. . أخترق القشرة الخارجية وأُوغل في جغرافية الجسد البشري المترع بالعجائب والمعجزات. . ولطالما قلت في نفسي بنوع من الغرور الذي كنت ألاحقه في الليل والنهار. . ها أنت ذا تمسك بتلابيب الإنسان. . فهل تستعصي عليك بعد اليوم علّة أو حالة مرضية؟ هل بمقدور الأوجاع أن تتحداك؟

لم أكن أعرف حتى لحظة التجربة المرة هذه. . أنني خسرت كثيراً، وأن رحلتي مع الإنسان لم تكن نجاحاً متواصلاً، وأن ثمة انكسارات كانت بانتظاري هنا وهناك. . وتذكرت ـ لا أدري لماذا ـ خلافي الدائم مع زوجتي بخصوص الحاجات البيتية التي كنت مكلفاً بشرائها يوماً بعد يوم، وكيف أنها كانت سيئة. . إلى الحدّ الذي كان يثير قرف زوجتي. . ويستفزّ نكدها الدائم. . الذي طالما كدّر صفو علاقتنا وأحالها إلى توتّر مشبوب. .

ها أنا ذا أعترف أنني لم أكن أملك القدرة على رؤية الأشياء المنظورة خارج الإنسان، وأن خبرتي بمطالب الحياة اليومية، وربما الاجتماعية، تكاد تكون صفراً. .

لقد تفوّقت في دراستي إلى حد مدهش، وكنت أملك ذكاءً أثار إعجاب كل الذين تعاملوا معي طالباً وطبيباً. . لقد بلغ تفوّقي المهني حدّاً أن غدت عيادتي تعج بعشرات المراجعين كل يوم. . يجيء أحدهم مرة واحدة فيتلقى المطلوب ويخرج مطمئناً. . ولكن الحياة في الخارج تتطلب قدرات أخرى على ما يبدو. . إن لها منطقها ولغتها

خارج دائرة العلم والتخصّص والمهنة والذكاء.. والذي لا يمسك بمفرداتها جيداً.. يضيع..

ومن بعيد جاءني صوت المعاون، وهو يقول برفق:

- ها نحن ذا قد وصلنا المركز..

وقبل أن أفيق من شرودي أردف قائلاً:

- اطمئن يا دكتور.. فإن التحقيق كفيل بالكشف عن كل شيء..

قلت وأنا أتثاءب وأغالب إغفاءة عابرة:

- ثلاثون سنة وأنا أكشف على الآخرين.. يبدو أنه قد آن الأوان للكشف عليّ.. وتسديد الحساب!

مذكرات مدرس مضطهد

كنت أعمل جراحاً للجملة العصبية في المستشفى الملكي في بغداد في الخمسينيات.. وبين الحين والحين.. أقوم بزيارات دورية لمستشفى (الشماعية) للأمراض العقلية، وكنت أعتبر ذلك ضرورة من الضرورات العلمية، فضلاً عن جانبها الوظيفي، لأنها كانت تطلعني على حالات استثنائية تضعني في قلب التحدي، وتدفعني إلى المزيد من البحث والتنقيب في طريقة عمل الدماغ البشري، وعوامل وأعراض اضطرابه وتفكُّكِه ودمارِه.

لفت أحدهم نظري بهدوئه، ونظرته المترعة بالعمق والحكمة.. كنت أجده حيناً وهو يحدق في نقطة ما في الفضاء كمن يحاول أن يكتشف شيئاً هناك، وحيناً آخر أراه مكباً على الأرض، وقد سرح ذهنه بعيداً، ربما في محاولة لاستبطان ذاتي بحثاً عن جواب ما.. وكل ما كان يصدر عنه من حركة إنما يتمثل بإبهامه وسبابته، وهما تتحركان بين لحظة وأخرى لإعادة إطار النظارات إلى وضعها الصحيح عند أرنبة الأنف.

وفي كل الأحوال، ما كان الرجل ليدفعني إلى متابعته أكثر، وسط زحمة أعمالي وضيق وقتي، إذ كان كثيرون مثله يمارسون «الذهول» الهادئ نفسه، وهي حالة نعرفها جيداً في عيادات المجانين. لكنّ ما جعلني أهتم بمتابعته أنني كنت ألمحه يُخرج بين الحين والحين دفتراً

صغيراً من جيب بيجامته، يقلّب أوراقه بهدوء، ثم ما يلبث أن ينكب على إحدى صفحاته وكأنه يبذل جهداً استثنائياً في قراءتها.

لم أشأ أن أزعج الرجل، أو أقتحم عليه همومه الخاصة، وهو أمر كثيراً ما كنا نحن الأطباء المتمرسون نحذّر منه طلابنا الجدد. وفضلت ـ بدلاً من ذلك ـ أن أسال عنه إدارة المستشفى، حيث تبين أنه مدرس رياضيات قديم في إحدى متوسطات الموصل، أحيل على التقاعد في ربيع عام ١٩٥٤م بسبب حالة الانفصام الحادة التي أخذ يعاني منها، ثم ما لبث أن نقل إلى مستشفى الشماعية في بغداد، ربما بطلب من عائلته، حيث فقد كلية القدرة على التواصل مع الآخرين، والتوافق مع الحياة.

بعد أسابيع قلائل سمعت أنه توفي.. انتابني شيء من الحزن بسبب حالته الخاصة وموقعه الوظيفي، ولكني سرعان ما نسيته وأنا أتذكر دفتره الصغير الذي طالما كان يحدق في صفحاته ويقلبها على غير انتظام.. وهرعت إلى إدارة المستشفى بحثاً عنه وقد تملكني القلق من أن يكون الدفتر قد أعيد إلى عائلته مع مخلفاته الأخرى.. لكنني لحسن الحظ وجدته في انتظاري على مكتب المدير.

لوح لي به وهو يبتسم وقال:

ـ كنت أعرف أنك ستبحث عنه فاحتفظت به.

ـ لا تدري كم أنا أشكرك.

أجاب وهو يسلمني إياه:

ـ هدية متواضعة جداً لأستاذنا الدكتور عبد الحكيم الصباغ

ـ أشكرك مرة أخرى..

توجهت إلى عيادتي في شارع السعدون.. كان ثمة ما يزيد عن نصف الساعة على موعد أول مريض، ففتحت الدفتر بلهفة لمتابعة ما الذي كان صاحبه قد دوّنه فيه.

ـ دفتر مذكرات يومية..

قلت في نفسي وأنا أقلب صفحاته بسرعة وتقع عيناي على تواريخ متقاربة حيناً، متباعدة أحياناً من مرحلة الخمسينيات.. ورحت أقرأ بشغف لعلي أطلع في ثنايا الكلمات على شيء يكشف حقيقة ما أو يضع يدي على جذور الحالة التي انتهت به إلى الدمار.

الاثنين ٣ ـ ١٠ ـ ١٩٥٣م

أشعر بارتياح عميق.. لقد انتظم الدوام بعد أسبوعين من القلق والتسيب.. لا أرتاح لتغيب الطلبة الجماعي.. عندما أدخل الصف فأجد عددهم متكاملاً أقول في نفسي: أبشر

يا نجيب فلسوف تقدم اليوم خبرتك كاملة..

الفوضى تربكني هي الأخرى.. لأنني أشعر بأن الأشياء أصبحت في غير موضعها فأتبعثر معها أنا الآخر.. أمنيتي أن يكون كل شيء في محله تماماً، ولكن ليس في اليد حيلة.. ومشكلتي أنني أحب طلبتي أكثر مما يجب.. ولهذا أتركهم أحياناً يعبرون بعفوية عن أنفسهم، وقد يخرجون عن المطلوب بدرجة أو أخرى.. وبعضهم يتجاوز حدود اللياقة مستغلاً سماحتي.. ولقد نبهني مدير المدرسة إلى أن أكون أكثر حزماً في هذه النقطة بالذات، وثنى عليه المعاون الذي طالما كبسني داخل الصف وأنا أمنح الطلبة بين الحين والحين فرصة

للارتياح.. لا لشيء إلا لأنني أريدهم أن يستأنفوا متابعتي في حل المسائل الرياضية وهم أكثر قدرة على التركيز.. ثم إنني أحبهم.. وهذه ليست مشكلتي!

الخميس ٦ / ١٠ / ١٩٥٣م

تدفق الطلبة على الصف يغمرهم الحبور، كما هو الحال كل يوم خميس، فها هو ذا موعدهم الأسبوعي للخروج مساءً إلى السينما.. إنه اليوم الذي ينتظرونه على مدى الأسبوع كله.. وهاهي ذي الغبطة تكاد تطير بكل واحد منهم في الهواء.

وتذكرت أيام صباي.. وأنا أكاد أطير معهم محمولاً على نشوة الذكرى.. يا لتلك الأيام السعيدة!

أخرج أحدهم من جيب سترته ضفدعاً.. وألقاه في الممر الفاصل بين خطي المناضد الدراسية.. حاولت أن أتغاضى عنه ولكنني وجدت الطلبة كلهم يحدقون فيه ويضحكون.. فتقدمت إلى الطالب وربّتُّ على كتفه بحنان وأنا أقول:

- لماذا أيها الشقي؟!.

أجاب وهو يحسّ بغبطة طاغية بعد إذ قدر على جلب انتباه زملائه جميعاً:

- إنه يوم الخميس يا أستاذ!

- وهل يختلف يوم الخميس عن بقية الأيام؟

- بكل تأكيد.

- ولكننا في المدرسة بعد يا بُنيّ ولسنا في السينما!.

قال وهو يحرك كتفه بلا أبالية:

ـ مع ذلك!

ربَتُّ على كتفه مرة أخرى وأنا أقول له برفق:

ـ قم يا بني فألق القبض على الضفدع المسكين.. قبل أن يسحقه زملاؤك بأحذيتهم، وارمه في الفناء..

قفز الطالب، واجتاز الممر وهو يكاد يرقص، وأمسك بالضفدع، وزملاؤه يتصايحون... ووضعه في جيبه!

كان الباب مواربًا بعض الشيء، ولمحت المعاون المعروف بشدته وسفاهته يمر قريبًا من الفتحة.. ويلقي نظرة غاضبة مترعة بالازدراء، ثم يمضي إلى هدفه..

أحسست بشيء من الانقباض، وقلت للطالب وقد كدت أن أفقد صفائي النفسي وفرحي:

ـ ليس هذا مكانه يا بُني.. ارمه في الفناء

مضى الطالب بتثاقل إلى الباب وقذف بالضفدع بعيدًا، وعاد وهو يرفع قبالة زملائه إشارة النصر!

السبت ٨ / ١٠ / ١٩٥٣

دخلت الصف فوجدت الطلبة يغمرهم الوجوم وتكسو وجوههم الكآبة بخلاف ما كانوا عليه قبل يومين..

خمنت السبب.. إنه يوم السبت.. بداية الأسبوع الثقيل، حيث يقبل الطلبة على بدء رحلتهم الأسبوعية مع هموم الدراسة، ولا تزال ذكريات الخميس العذبة، ولعب الساعات الطوال صبيحة الجمعة،

تداعب مخيلتهم.. وقلت في نفسي: لا بأس، إنه بالنسبة لي على الأقل يوم راحة، فها هو ذا وجومهم يجعلهم أكثر ثقلاً، وهاهم في هذا اليوم بالذات يكفون عما أسميه دائماً الفعاليات الترفيهية.. ومع ذلك، كان هذا يقلقني بعض الشيء.. يجعلني أحس بخوف مبهم.. لعله الهدوء الذي يسبق العاصفة.. أقول في نفسي.. وقد يتمخض عن شيء ما على حين غفلة..

هاجس موغل لا أكاد أتبينه، وأحاول طرده بإقناع نفسي أنه ربما يكون وسوسة لا مبرر لها.. لكنه يصرّ على التمركز في مكان ما من جملتي العصبية.. يتسرب هناك كعرق أصابه السوس..

إنهم قد يفعلون شيئاً ما خارج نطاق كل حساب.. شيئاً يتجاوز حالته الترفيهية العفوية إلى عمل عدواني مدمر.. وهاهو ذا المعاون العنيد الذي يتحين الفرص للإيقاع بي، يروح ويجيء ملقياً نظرته الباردة كالجليد عبر فتحة الباب، أو من خلال النافذة.. ولكن لا بأس فلسوف ألاحق الهاجس.. والقلق.. والخوف من المجهول، بمحبتي لطلبتي.. إنهم المظلة التي قد تصد رياح السموم القادمة من جهة المعاون.. وربما من ذلك المكان الخفي في أعصابي.. المكان البعيد الذي لا أستطيع الإمساك به..

الثلاثاء ١١/ ١٠ / ١٩٥٣م

تلقى الطلبة شرحي لمبادئ المثلثات بإنصات مريح عبر الدقائق الأولى، ولكن بعدها بقليل أحسست كما لو أنهم بدؤوا يتململون، وكان عليّ أن أعطيهم كعادتي فرصتهم الترفيهية المعهودة.. فاصلاً زمنياً يريحون فيه أعصابهم ويستعدون لجولة أخرى من الشرح قبل أن أملي عليهم السؤال التحريري لكي يجيبوا عليه..

إنه خطئي على أية حال.. لقد أطلت الشرح بأكثر مما يجب.. لعلي كنت منغمراً في نشوة فك طلاسم الموضوع.. إنها والحق يقال، متعة من نوع غريب تجعلني أهتز ـ أحياناً ـ بحركة غير اعتيادية.. لكأنني أرقص بهدوء.. بصورة غير منظورة تماماً.. لكن المتمعن فيها يتبين له أن مدرس الرياضيات يتأرجح بين الحين والحين ذات اليمين وذات الشمال.. وكان الطلبة يبتسمون وهم يرونني أفعل ذلك.. فأحاول أن أكف عن التأرجح فلا أستطيع.. ويوماً بعد يوم أصبحت الحالة أمراً قهرياً وأرغمتني على الخضوع.. وأقول في نفسي: الطلبة.. لا بأس.. ولكن ماذا لو رآني المدير أو معاونه القاسي؟

وانكببت على اللوحة السوداء امسحها بشغف، مديراً ظهري للطلبة.. وعندما ألتفت قليلاً لإشعار الأولاد بحضوري، رأيت أحدهم ينهض بتثاقل ثم يتقدم إلى اللوحة ويقف بموازاتي..

ـ لا يمكن يا أستاذ!

ومدّ يده إليّ فانتزع الممحاة مني وأردف:

ـ لقد امتلأت بدلتك النقية بغبار الطباشير!.

أجبته بمودة:

ـ لا بأس يا بني فقد اعتدت هذا.

دفعني جانباً وهو يردد:

ـ لا يا أستاذ.. لا..

وانكب على اللوحة حتى أتم مسحها، وعندما همّ بمغادرة المكان عائداً إلى مقعده، أحسست كما لو أن يده تمتد خلف ظهري فتعلق على السترة شيئاً ما..

ربما أكون واهماً.. قلت في نفسي.. لكنني عندما رحت أذرع الممر داخل الصف، ذهاباً وإياباً، بانتظار إجابة الطلبة على السؤال اليومي التحريري، لاحظت أنهم يتضاحكون ويتغامزون ويشير بعضهم إلى ظهري.. وقلت في نفسي وأنا أتلقى رشقة من الخوف: أرجو ألا يكون شيئاً ذا بال..

وتذكرت المعاون الذي يتحرك كالمكوك الطائر بخفته ورشاقته المعهودة في فناء المدرسة، متبرعاً بالنيابة عن المدير الذي لا يفارق مقعده، في مراقبة الطلبة والمدرسين معاً..

وازداد تضاحك الطلبة وتقافزهم.. ووجدتني أصرخ على غير إرادة مني:

ـ ماذا يا أولاد؟

بعفوية بالغة أشاروا جميعاً إلى ظهري دون أن ينبسوا ببنت شفة.. فقد كان الضحك المكتوم يخنقهم.. واستطاع أحدهم أن يفك عقدة لسانه ويقول:

ـ إنه يشبه الذيل يا أستاذ!

الأحد ٦ / ١١ / ١٩٥٣م

عندما التفتُّ إلى اللوحة للبدء بكتابة المعادلة ذات الحدَّين.. وجدت صورتي مرسومة بالطباشير على جانب منها.. أدهشتني دقة الخطوط، والمهارة الملحوظة في رسم الملامح..

ـ إنه أنا بكل تأكيد!

قلت في نفسي..

ـ ولكن من هو الطالب الفنان الذي نفذها؟

استدرت بسرعة لكي أواجه الطلبة. . وجدتهم يغصون بالضحك وهم ينقلون نظراتهم بين الصورة والأصل. .

وقلت لهم بمودة، في محاولة لاحتواء الموقف:

ـ إنها محاولة جيدة على أية حال. . وهي تدل ولا ريب على القدرة الفنية العالية للطالب الذي رسمها. . ولكن من هو هذا الطالب الشاطر يا أولاد؟ أرجو أن يرفع إصبعه بهدوء لكي أهنئه. .

لم يردّ عليّ أحد. . وضاع رجائي في الفضاء. . وللحظات انتابني حنين جارف لممارسة ما اعتبرته دائماً هوايتي المفضلة: الرسم! لقد نفذت أيام دراستي الجامعية العديد من اللوحات. . كلها أثار الإعجاب. . كنت أملك قدرة فائقة على توظيف اللون، وأعرف كيف أجعله يحكي بلغته الخاصة ما تعجز عنه الكلمات. .

النار التي كانت تشتعل في وجداني، والحساسية المفرطة في التعامل مع الخبرات والأشياء. . وانعدام فاصل الألم بيني وبين العالم، وربما قوة الخيال التي دربني عليها التعامل المدهش مع الهندسة والمثلثات، جعلتني أجد في الرسم الفرصة الملائمة للتعبير. . وطالما أقنعت نفسي بأنني لولا الرسم لتطايرت بدداً وأصبحت شتاتاً. . لقد غدت أعصابي بمرور الوقت مكشوفة بأكثر مما يجب. . مكشوفة لأبسط المؤثرات وأكثرها خفاءً ونأياً. . أن تضرب بفرشاتك على اللوحة ملطخاً إياها بالزيت الأحمر يعني أنك تجاوزت لحظات النزف الباطني الذي قد يدمرك. . حررت نفسك من أزيزه المخيف. .

انتبهت فجأة إلى أحد الطلبة ينهض قائماً، ويتقدم إلى اللوحة بخطوات واثقة. . يقف قريباً مني ويقول وهو يشير إلى البورتريت:

ـ أنا يا أستاذ!

ربَّتُّ على كتفه بحنان:

ـ حسناً يا ولدي. . آمل أن تنمي قدرتك المدهشة على الرسم، ولكن. . ألست معي في أن هذه اللوحة ليست في مكانها الطبيعي؟

وقال الطالب، وهو يهم بمغادرة المكان وسط نوبة مفاجئة من الإحساس بالخجل:

ـ أعدك يا أستاذ!

الأربعاء ٧ ـ ١٢ ـ ١٩٥٣ م

المرارة تملأ فمي وأنا أدوِّن هذه الكلمات. . لقد استطاع المعاون صبيحة اليوم أن يسجل عليّ انتصاراً ساحقاً. . أن يضعني في الزاوية الضيقة قبالة المدير، ويسدّد إليَّ رشقات متلاحقة من سهامه المسمومة. . جعلتني أترنح قليلاً وأتهيأ لاستقبال لعنة الإغماء. . لولا المقاومة الاستثنائية التي بذلتها لتفادي السقوط.

طلبتي الذين أحببتهم كانوا السبب. . لكن المعاون أصر ـ كما هو شأنه دائماً ـ على أنني المسؤول أولاً وأخيراً. . وإلا فما معنى أن يدخل حصتي الثانية للاطلاع على الموقف (كما يحب أن يسميه) فلا يجدني في الصف، ويجد ـ بدلاً من ذلك ـ المدفأة الحديدية وهي تنفث دخانها المختنق بكثافة، وتقذف به في الفضاء، فلا يكاد أحد يتبين موطئ قدميه. . بينما سعال الطلبة وصراخهم يتداخلان مع بعضهما ليشكِّلا لحناً تضطرب فيه الأصوات وتزداد حدة بما يكاد يمزق طبلة الأذن ويمزق الأعصاب؟!

أستطيع اللحظة، وقد استعدت شيئاً من هدوئي، أن أتذكر ما الذي حدث على وجه التحديد. .

دخلت الصف وأنا أرتجف من البرد، ورشقات المطر الغزير تبلل شعري وثيابي.. ولم تنج منها نظارتي التي كنت أحرص على أن تكون في مكانها تماماً، مثبتة بإحكام فوق أرنبة أنفي لكي لا يفلت الطلبة من رقابتي!

هذه المرة كان علي أن أنتزعها.. وأن أخرج منديلي من جيب سروالي لكي أمسحها جيداً..

يبدو أن المهمة أخذت مني أكثر مما يجب، ولعل الإحساس اللذيذ بالدفء جعلني أسترخي قليلاً، بحيث أنني عندما أعدتها إلى مكانها ثانية، رأيت ما لم أره من قبل!

يبدو أن أحد الطلبة صب قليلاً من الماء على خزان المدفأة حيث يشتعل الخشب بهدوء، ثم جاء آخر فوضع قطعة من قماش مبلل فازدادت المدفأة اختناقاً.. وراحت موجات الدخان تكافح بشراسة لكي تجد لها منفذاً لمغادرة المخزن المختنق.. وفي دقائق أصبح جو الغرفة مشبعاً بالرائحة الحادة والدخان..

حاولت أن أكتم رغبة جارفة بالسعال، ولكن عبثاً.. لقد تسلل السم إلى رئتي وخيشومي، فكاد يمنع عني التنفس، ويضعني أنا الآخر في دائرة الاختناق..

صحت بصوت مبحوح وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي:

ـ ما الذي جعلكم تفعلون هذا يا أولادي؟!.

أجاب أكثر من واحد:

ـ وما ذنبنا نحن؟ لقد حاولنا أن نزيد قدرتها على التدفئة فانزعجت منا.. البرد يا أستاذ يفوق التحمل..

وصاح أحدهم وهو يوجه إليها رفسة قاسية بحذائه الملطخ بالوحل:

ـ لك الويل أيتها العاهرة.

وقلت وأنا أكافح السعال مرة أخرى:

ـ ليس هكذا يا أولاد.. لقد اختنقتْ كما ترون.. هل تعرفون ما الذي يعنيه هذا؟

صاحوا جميعاً بجذل، وهم يتحركون قبالتي كالأشباح التي لا تكاد ترى:

ـ ما الذي يعنيه يا أستاذ؟!

صرخت:

ـ خسارة الدرس كله!

وأردفت بيني وبين نفسي: وربما هزيمتي التي طالما تحاشيتها قبالة معاون المدير.

على حين غفلة انفجرت أكف الطلبة بتصفيق كالرعد.. وبين لحظة وأخرى كانت تنطلق صرخة حادة من هذا الطالب أو ذاك:

ـ اللعنة على الرياضيات..

ـ هذا يوم الثأر..

ـ لتخسأ الأرقام والمعادلات..

ـ الحرية.. ولا شيء غير الحرية..

أحسست أنني أفقد السيطرة تماماً، وحاولت بصعوبة أن ألتقط أنفاسي لكي أواصل المقاومة، ولكن عبثاً.. ثمة قوة قاهرة كانت تجرّني قليلاً فتقذف بي خارج الصف.

وأنا أتلقى الرشقة الأولى من الهواء النقي الممتزج بالبرد والمطر، خُيِّل إلي أن المعاون ينطلق كالسهم فيتجاوز الفناء الواسع ويمرق إلى الصف. ها قد وقعت الواقعة.. قلت في نفسي.. فما العمل؟

كان علي أن أرجع سريعاً إلى دائرة الدخان والاختناق وهدير الأصوات لكي أجابه الموقف.. وجدت المعاون ينتصب قريباً من الباب.. نظر إلي بازدراء يصعب وصفه، ولم يكلف نفسه حتى عناء كلمة يقولها لي: اتبعني مثلاً.. واكتفى بإشارة من إصبعه كأنه يصدر أمره إلى تلميذ أو فرّاش، ثم ما لبث أن غادر الصف.

للحظات حدثتني نفسي بعصيان أمره.. وقلت في نوبة حماس مفاجئة: ليكن ما يكون!

ولكنني ما لبثت أن تذكرت النقل، وربما الفصل والجوع والتشرد، فانكمشت قليلاً، ورحت أقنع نفسي بأن التعليمات لها حرمتها هي الأخرى.. وخلال أقل من دقيقة.. وجدتني في غرفة المدير.

كان جالساً كعادته على الكرسي الدوار بكرشه المنتفخ، وعينيه اللتين أسرهما إغراء النوم.. وإلى جواره كان يقف المعاون كنذير السوء، ببنيته الضعيفة، ولكن بعصبيته وقدرته الجارفة على اكتساح الخصوم.

قال بنبرة ساخرة ودون أن يأخذ إذناً من المدير:

ـ هيا يا أستاذ؟.. احكِ للسيد المدير عن تفاصيل المسرحية الكوميدية التي شهدَتْها حصَّتُك!

قلت وكأنني أدفع قدراً واقعاً لا طاقة لي به:

ـ أية مسرحية؟

فجأة انفجر بضحك متواصل راح يهتز معه جسده النحيل واضطر أكثر من مرة لإعادة تثبيت (سدارته) السوداء على رأسه قبل أن تسقط على الأرض!!

مرة أخرى تساءلت وأنا أغوص في بئر عميق:

ـ أية مسرحية؟

أجاب، وهو يجفف بمنديله المزركش الدموع التي آثارها ضحكه:

ـ مسرحية الدخان يا أستاذ.. لقد أحسنت إخراجها على أية حال رغم أنك تركت خشبة المسرح في لحظة تأزّم الموقف!

تنحنح المدير قليلاً وهو يلتفت إلى معاونه متسائلاً:

ـ ما الذي حدث؟

قال المعاون وهو يحاول أن يكون أكثر تأدباً مع مديره:

ـ أساله أيها السيد المدير.. فأنا أفضل أن يجيبك بنفسه!

الأربعاء ١٤ / ١٢ / ١٩٥٣م

ألقيت نظرة عابرة من النافذة المطلة على فناء المدرسة فدقّ قلبي بعنف.. هاهو ذا المفتش القادم من بغداد في إحدى جولاته الموسمية.. وبين يديه يتقافز المعاون بجسده النحيل، وقدرته المذهلة على الحركة السريعة.. وبين لحظة وأخرى يقترب منه ويهمس في أذنه شيئاً.. لابد أنه يحدثه عني.. قلت في نفسي.. إنه قادم إلى الصف لا محالة.. والمسألة مسألة وقت.. ودق قلبي بعنف أشد هذه المرة حتى كدت أسمع وجيبه.

التفتُّ إلى طلبتي ريثما أواصل الدرس فوجدت عقدهم قد انفرط كرة أخرى.. بذلت جهداً استثنائياً لإعادة السيطرة فلم أنجح.. توسلت إليهم أن يرجع كل إلى مقعده، وأن يلتزموا الصمت لكي أتمكن من إتمام محاضرتي، فلم يأبهوا لي.. لم أقل لهم إن المفتش قادم بعد لحظات، وإن المعاون سيحظى بالثمرة المرة التي انتظرها طويلاً فتسقط في يديه.. لم أشأ أن أبين لهم أن نصله الحادّ قد يحزّ رقبتي بمجرد أن يرى المفتش رأي العين عجزي عن ضبط طلبتي والإمساك بزمام الدرس.

هرعت إليهم وأنا أدخل مع الزمن في سباق محموم لعلي أعيدهم إلى الطريق.. التحمت بهم وتوسلت إليهم دون جدوى.. أخذت قطرات العرق تنبجس على جبهتي، رغم برودة الجو، وأنفاسي تزداد تسارعاً..

وعلى حين غفلة تلقى سمعي نقراً خفيفاً على الباب..

أجبت كمن يعاني من كابوس ثقيل، فيصرخ فلا يسمع صراخه:

- تفضل!

انفتح الباب بهدوء وهو يئز.. وأطلّ المفتش ومن ورائه المعاون.. عرضاً التقت نظراته بنظراتي الزائغة، فأحسست كما لو أنه يبتسم بخبث ويقول بتشفّ: ها قد جاء يومك يا نجيب!. فلكل شيء نهاية..

وقلت في نفسي وأنا أكافح الدوار والغثيان، وأتحرك ببطء صوب الباب لاستقبال المفتش: لم أحاول يوماً أن أوذيك فلم تلاحقني؟!

حيّاني المفتش ببرود.. ثم ألقى نظرة مترعة بعدم الارتياح إلى الطلبة المبعثرين على غير انتظام.. وقال بهدوء مشيراً إليهم:

ـ ما هذا؟

تراكض الطلبة هنا وهناك، وفي لحظات كان كل منهم قد استقر في مكانه، والتزموا صمتاً موجعاً كأن على رؤوسهم الطير.. وشعرت كما لو أنني أزداد انكشافاً قبالة المفتش والمعاون.. وأن ثمة فضاء خاوياً.. فضاءً مخيفاً مترعاً بالوحشة والكآبة يحيط بي من كل مكان، وأنني تُركت فيه وحدي لمجابهة الخوف والمجهول.

ومن مكان بعيد لم أقدر على تبيّن مصدره سمعت حواراً مفككاً وأصواتاً متداخلة، وخُيِّل إليَّ للحظات أن المفتش يسال الطلبة عن بعض المفردات، وأنهم لم يعطوه ما يريد.. وخُيِّل إلي أيضاً أن المعاون عاد لكي يهمس في أذنه أكثر من مرة وهو يردد: ألم أقل لك؟

وبدون ما كلمة وداع واحدة غادر الرجلان الصف وتركاني وحدي.. قبالة الوحشة والخوف والفراغ.. إزاء طلبتي الذين أحببتهم كثيراً فخذلوني في ساعة الامتحان!

وقلت في نفسي مرة أخرى.. وأنا أتهالك على الكرسي وأمسح بظاهر كفي قطرات العرق.. المتصبب على جبهتي بغير حساب: لم أحاول يوماً أن أوذيك فلم تلاحقني؟!

الجمعة ٢٣ / ١٢ / ١٩٥٣م

أخذت أميل إلى البقاء في الدار.. إنه ملاذي الأخير.. ثم إنني لا أريد أن أخدع نفسي، فإن قدرتي على التواصل مع الآخرين راحت تتضاءل يوماً بعد يوم، وأصبح وجودي مع زملائي المدرسين في (مقهى الحمراء) القريب من المتوسطة التي أعمل فيها غير مرغوب فيه..

وتساءلت بمرارة: ما الذي حدث؟ لقد كانوا إلى عهد قريب يبحثون عني ويلحّون علي بالحضور.. ولطالما قالوا بأن جلسات الحمراء لا تحلو بدون نجيب.. فما الذي حدث؟

كنت ألحظهم بين الحين والحين يتبادلون الضحكات المكبوتة كلما تحدثت أو هممت بالكلام.. ما الذي يدعوهم إلى الضحك؟ ما الذي يجعلهم لا يكترثون لكلامي.. وكأنني صبيّ لا يدري كيف يصوغ المعاني والعبارات؟

على حين غفلة ناداني هاجس ملحّ.. أن اعتزلهم حفاظاً على كرامتي، فاستجبت للنداء وأصبحت الدار والأهل هي المأوى والملاذ.. لكن.. وبمرور الوقت، لحقتني اللعنة إلى الدار والأهل فلم أعد أقدر على التواصل معهم.. على نقل أفكاري إليهم أو التعبير عنها بشكل واضح محدد.. لقد خذلتني الكلمات.. كما خذلني طلبتي.. فلا حول ولا قوة إلا بالله..

كنت أتوقع أن تجابه أحاديثي المتقطعة مع الأهل بالضحكات المكتومة كما كان يحدث مع الزملاء في مقهى الحمراء.. ولكني فوجئت بالحزن العميق يكسو وجوههم، وبالدموع وهي تكاد تطفر من عيونهم كلما قلت شيئاً أو هممت بحديث..

الاثنين ٢٦ / ١٢ / ١٩٥٣م

صدر الأمر بنقلي إلى مدينة زاخو في أقصى شمال العراق.. تلقيت النبأ باستسلام كامل.. لم أكن أتوقعه على الإطلاق.. وقد أعانني ذلك على امتصاص الصدمة إلى حد كبير. رغم ما كان يخترقني

بين الحين والآخر من إحساس ممضّ بالغيظ تجاه المعاون، وكنت أقول في نفسي: لقد انتصر عليّ أخيراً..

لشدّ ما كنت أتمنى أن أتحرر من هذه الوخزة القاسية.. عندها - كما يخيل لي - لن يكون ثمة ما يقلقني أو يؤلمني.. ولكن ليس في اليد حيلة.. ويبدو أن الإنسان مكتوب عليه أن يحمل عذابه على ظهره، حتى وهو يعلن عن موافقته المطلقة على الاستسلام..

برد زاخو يخترق العظام، ومطرها المتواصل ليل نهار، وفضاؤها الرمادي الكئيب، ما كانت لتزيدني إلا إحساساً بالأمن والاطمئنان.. هاهو ذا المنفى الذي كنت أحلم به، وسأجدني قبالة صنف آخر من الطلبة قد يكون أرحم بكثير، وسأعرف كيف أبدأ معهم بداية جديدة في ضوء خبراتي السابقة.. سأعرف كيف أستعيد قدرتي على إدارة الصف كـ «مايسترو» ماهر يحرك بعصاه السحرية جوقته صوب ما يريده هو لا ما يريدونه هم!

كان كل شيء يضعني في دائرة الائتمان الذاتي، لولا شبح المعاون الذي ظل يخترقني بين لحظة وأخرى كنصل حاد، وكنت أتلقى في كل مرة يقتحمني فيها رشقات من القهر والمرارة والرغبة المكبوتة في الرد.. ما أحال وجودي في زاخو إلى جحيم مشبوب..

مراراً.. هممت بركوب إحدى سيارات الأجرة العائدة إلى الموصل، فقط لكي أجابه المعاون وأردّ عليه، ولكنني كنت دائماً أتراجع في اللحظة الأخيرة.. كان الخوف من الفشل يشلّني، وكنت أقول: من يدري فلعله يهزمني مرة أخرى، فكيف سيكون الحال؟

وبمرور الوقت صرت أهرب من حصار القهر وسكينه الحادة التي تغوص في لحمي لحظة وأخرى.. إلى الشرود.. محاولة لتغييب العقل والذاكرة، وفك الارتباط بيني وبين العالم.. قطع الجسور مع المدركات والحسيات والاعتصام بالجزيرة المنعزلة التي تتأبى على السموم.. وحينذاك ـ فقط ـ سأرتاح..

يوماً بعد يوم كنت أجدني مرغماً على إعطاء مساحة زمنية أكبر لحالة الشرود والانفصال هذه.. وقلت في نفسي: لقد أصبحت يا نجيب مدمناً من نوع خاص.. ولكن لا بأس..

جلساتي مع الزملاء في نادي المعلمين في زاخو أصبحت تثير الدهشة والتساؤل، ولكنهم ما لبثوا أن اقتنعوا، بمبررات انفصالي عنهم وإغراقي في الشرود.

وكنت أنصت إليهم أحياناً وهم يشيرون إلي من طرف خفي ويقول أحدهم:

ـ لا داعي لإزعاجه.. دعوه في شروده.. فإنَّ نقله من الموصل إلى هنا لم يكن دونما سبب!

وشيئاً فشيئاً كانت تصل المدير حكايات عما يجري داخل الصف.. قالوا له: إن شرحه للمادة لا يتجاوز الدقائق العشر، وبعدها يذهل عن طلبته ويغرق في عالمه الخاص.. ولك أن تتصور ما الذي يشهده مسرح العمليات!

طلبة البكالوريا رفعوا شكواهم للمدير في أن الموسم الدراسي يمضي إلى نهايته دون أن يكون مدرس الرياضيات قد اجتاز بهم نصف المفردات المنهجية..

أحد الطلبة الأذكياء نقل هذه المعلومة إلى المدير: إن المدرس المنقول عندما يكون في كامل انتباهه يقدم لهم في لحظات ما لا يستطيع غيره أن يقدمه في ساعات.. ولكن..

ويوماً استدعاني المدير، وبطريقة مهذبة أعلمني أنني ربما أعاني من مشكلة ما، وأن حالتي النفسية تقتضي بعض التخفيف عني، وأن محاضرات الخامس الإعدادي ستُعطى لمدرس آخر..

تقبلتُ الأمر برضا.. ووجدتني أقول للمدير، وأنا أكرر شكري وامتناني، أنه إذا شاء سحب يدي من بقية المراحل، فلن يغضبني ذلك!

نظر إليّ بدهشة وأراد أن يقول شيئاً ما، لكنه آثر الصمت في اللحظة الأخيرة..

بعدها بيومين تسلمت أمر فصلي من الوظيفة، وخرج المدير بنفسه وعدد من الزملاء لإيصالي إلى الكراج وتوديعي بحرارة.

الأربعاء ٤ / ٤ / ١٩٥٤م

نظرت أمي إلي بدهشة وقالت وهي تشير إلى ذقني:

ـ ما هذا يا نجيب؟!

جرفتني موجة من الذهول فلم أردّ عليها..

بعد ساعة أو ساعتين سمعتها تقول لأبي وهما يجلسان في الفناء الذي تطل عليه غرفة نومي:

ـ ابنك انتهى يا رجل!.

أجابها، كمن يحاول أن يدفع شيئاً فوق طاقته:

ـ لا تكوني متشائمة بأكثر مما يجب يا امرأة . .

اقتربت منه أكثر وهي تقول:

ـ يكفي أن تنظر إلى ذقنه!

وللحظات تذكرت وأنا أفرك عيني من آثار إغفاءة عميقة، كيف أنني جعلت من ذقني فرصة طيبة لتأكيد علاقتي بتخصصي . . فجعلت موسى الحلاقة ترسمه على كل جانب في صيغة مثلثين متعاكسين . . وكيف أن هذا طالما أضحك زملائي في زاخو، ولكنهم ما لبثوا أن اعتادوه . . والمهم أنني أنا شخصياً كنت مقتنعاً به حتى النخاع!

الثلاثاء ٦ / ٦ / ١٩٥٤م

قُرع الباب بعنف فهُرعت زوجتي لكي تفتحه . . تدفق حشد من ذوي الملاءات البيضاء والقبعات الخضراء، وقبل أن يتساءلوا أشارت زوجتي إليّ فقلت لها وأنا أغوص في بئر عميق:

ـ حتى أنت يا بروتس؟!

خُيِّل إليَّ أن المفتش والمعاون يندفعان مع المندفعين لكي يوثقوني رباطاً، وناديت على زوجتي أن تحميني منهم فلم تردَّ علي . . انتحت جانباً من الفناء وراحت تبكي بصمت . .

استجمعت قوتي المتلاشية كلَّها وصرخت:

ـ ما الذي جرى؟ وهل ارتكبت جرماً يستحق هذا كله؟

فلم يردّ علي أحد . . كانوا منهمكين بإحكام وثاقي . . ثم دفعوني نحو الباب . . ولمحت المعاون يقترب أكثر من المفتش ويهمس في أذنه فصرخت مغتاظاً:

ـ ألم يكفك ما حلَّ بي؟

لكنه فجأة ما لبث أن اختفى والمفتش، دون أن يكلف نفسه عناء الردَّ علي.. ووجدتني أرتفع قليلاً قليلاً كما لو أنني أسبح في الفضاء، لكني ما ألبث أن أستلقي متهالكاً على مقعد طويل في باص مقفل، انطلق بي بسرعة أسطورية.. لا أدري إلى أين؟!.

السبت ....

إذا استطعت أن أفكك منظومة الحياة وأحيلها إلى أصولها الرقمية..

إذا استطعت أن أفسر لغز الكون بالإحالة على أضلاع المثلث الثلاثة..

إذا استطعت أن أجعل المعادلات حكماً بين الإنسان والإنسان..

أطلقوا سراحي وأعادوني إلى بيتي وأهلي ومدرستي، وردوا إلي تلاميذي الذين أحببتهم.. هكذا وعدني المدير الذي اعتقلوني في سجنه الكئيب منذ زمن لا أعلم بدايته.. ترى هل سيقدَّر لي الخلاص؟!

الاثنين ....

لقد أجهزتَ عليَّ دون سبب معقول.. فهل ستكفَّ عن ملاحقتي؟

الخميس ....

فهرس الموضوعات

تقديم ٥
الطبيب والأم ٩
رحلة الصعود التي لا نهاية لها... .... ٢٣
الفرصة الأخيرة ٣٧
الموت شبعاً ٥١
جماد ٦٧
الأشباح ٧٧
الخدعة ٨٧
مذكرات مدرس مضطهد ١٠١



رحلة الصعود التي لا نهاية لها

مجموعة من القصص القصيرة، جمعت بين فنية الأداء والواقعية الإسلامية، وتوظيف رؤيتها من خلال التزام تبدّى في النزعة البناءة، واحترام حاجة القارئ الذهنية والنفسية، إلى جانب الاهتمام بتحقيق المتعة الفنية، والتوق للتعامل مع نصٍّ إبداعي متميز.

ومن تلك القصص: الطبيب والأم، الفرصة الأخيرة، الموت شبعاً، جماد، الأشباح، الخدعة، وغير ذلك مما يجده القارئ بلغةٍ سهلةٍ وأسلوب جذابٍ.



ISBN 978-614-415-225-6
9 786144 152256

www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com